

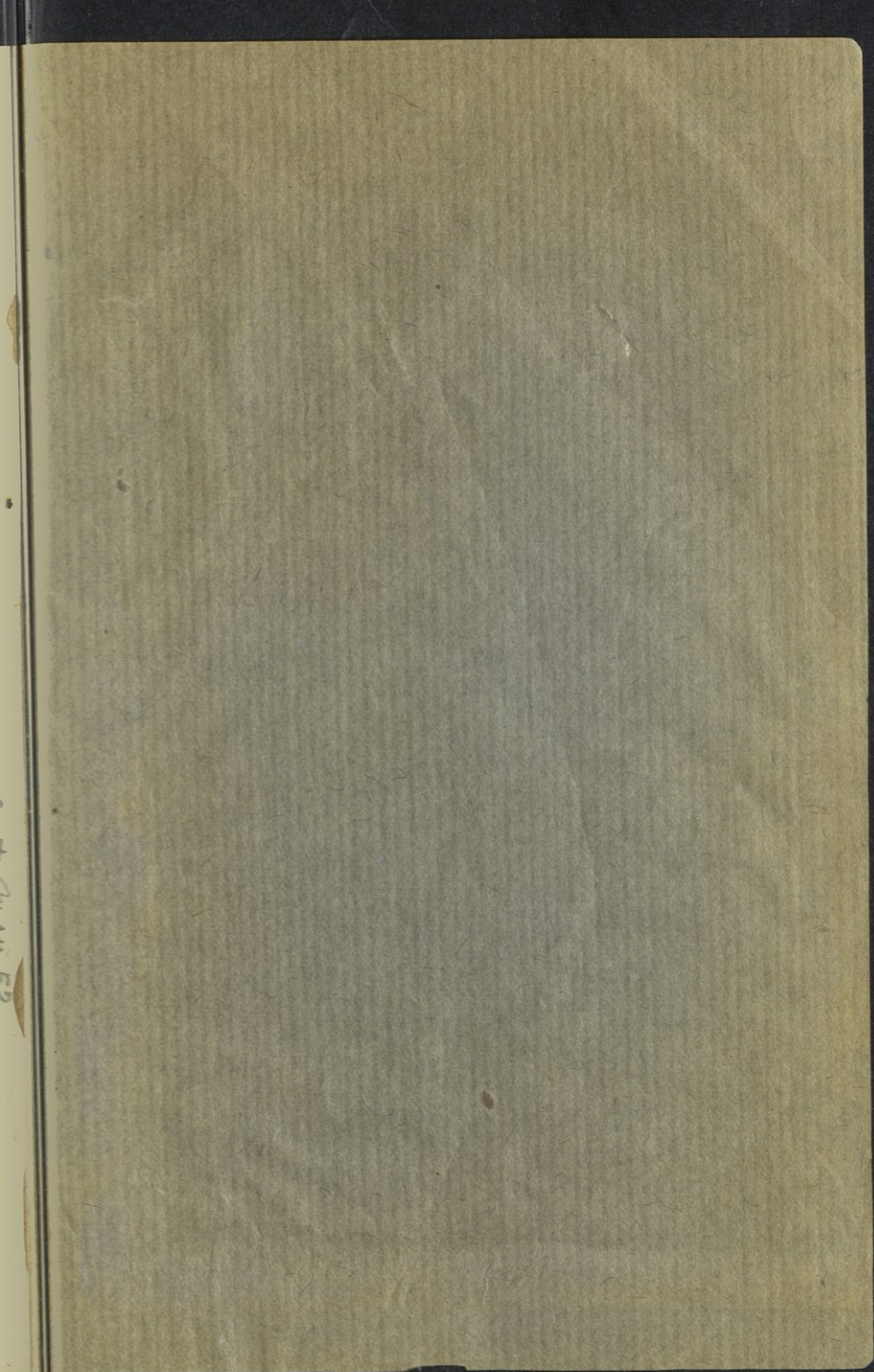
396
Sa15iA
v.1

DATE DUE

JAFET LIB.
- 7 FEB 1991

—T 1/3

11



AS

396

Sal52A

V.1

C.1

وَدَادَسِكَاكِينِي

إلى الطائفة البربر ورائد الفلح لبناء

الاستاذ البربر أديب

منشئ « الأدب » في بيروت

تحت تقديرنا ومنا

المؤلف

انصاف المرأة

القسم الاول



Cat. May 52

78797



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المرسل

إذا كان لابد لكل كتاب من مقدمة ، فاني أؤثر المقدمات القصار ، لأنها تفضي بالقاريء الى الكتاب دون تعرج او انعطاف ، وأحسن البيوت ما كانت ابوابها على الدرب ، تصل إليها من غير وصيد بعيد او دهليز طويل

وهأنذا أقدم كتابي « انصاف المرأة » لجمهرة القراء والقارئات وقد صنعته من أجل الشرفيات عامة ، والسوريات خاصة ، فأودعته سيرة جهاد وحياة تملل وتعلم وانتظار ، وماضيًا للمرأة فيه ألم وعزاء وحاضراً فيه رجاء وعناء ، وما كان موضوع الكتاب لينطوي تحت طبيعة واحدة يبدأ منها وينتهي اليها ، فان خير الكتب ما كان ذا وحدة في فنه وغايته ، من فاتحته الى خاتمته ، غير ان الشافع لكتابي هذا هو انه ينبثق من الموضوع الواحد الذي يمس المرأة في حياتها وحاجتها مساً قريباً ، ويتحدث عن نفسها وجنسها ، في البيت والمجتمع ، في الثقافة والشئال ، في الانطواء والتجهر ، ولقد جمعت صفحاته من أحاديث ومقالات ، نشر بعضها في الصحف والمجلات ،

او تحدثت في بعضها الآخر بالمعاهد والاذاعات، فهي من صميم عالمنا
ودنيانا، فيها همومنا وقضيتنا، وفيها انوثتنا وقصتنا، وإنه لخم
لزام علينا ان نصور ما يضيح في حياتنا من وعي واعتداد وطموح
وان نعبر في سطورنا وآثارنا عن شوقنا الى مستقبل أفضل وناس
أعدل، ولا بدع ان كانت حجبتنا دامغة وصرختنا بالغة، فان الحق
أبلج، هو أحق بأن يتبع، ففي سبيله تجتاز المرأة العربية انقلاباً
اجتماعياً عنيفاً واكبت مواكبه على علم وكرامة ولباقة، حتى تبلغ
الغاية المثلى وتؤدي رسالتها في حدود الله وشرف الوطن وطاقة
المواهب والطبيعة

لقد ألفت من هذا الموضوع كتاباً للنساء يجدن في تضاعفه
وفجواه تصويراً لما يعنين في حياتهن الراهنة، ولتفتيات الجيل الصاعد
الذي يشفقن فيه من تاريخ الأمهات، وللرجال المخلصين لينظروا في
صفحات الحقيقة النسائية التي زورها أعداء المرأة، والباطل الذي
يهزجه المتحكمون في نهضتها، المختصمون في قضيتها، وكم نفع
الصراح فرد الى الخير والصواب

وما كانت المرأة في كل عصر ومصر الا ريحانة الوجود، ووسيلة
الحاود، فلنرو مغارسها بماء من صفاء القلب والروح، ولنتعهد نماءها
بعناية وتمحيص وإخلاص، وعندئذ نكون قد أنصقنا المرأة وصنعنا
من أجلها الجيل الذي لا يفنى

دمشق - واد سطا كيني

4 Dec

. V A C I .

انصاف المرأة

كشفنا كتاب « كشف الظنون » وهو السفر الجامع لمسميات
لو الكتب القديمة وأوصافها مخطوطة ومطبوعة ، لو أننا نقبنا في
هذا الكتاب عن التصنيف والمؤلفات التي سميت بالانصاف ، لوجدنا
بينها الكثير في شتى الموضوعات ، فمنها النصف بين الفقهاء والمحدثين
او بين اللغويين والنحويين ، ومنها الانصاف فيما بين العلماء من
خلاف ، والانصاف في قميز الأوقاف ، غير أننا لا نجد كتاباً واحداً
اخص بانصاف المرأة ، او انتصف مؤلفه من ظالمها ووقفه على قضيتها
كذلك كان حظ المرأة من المؤلفين والمصنفين ، حتى انبسطت
الحضارة العربية ، وازدهرت الحياة العقلية والاجتماعية فأخذ شيوخ
الأدب يجمعون ما قيل في النساء من طرف ونوادر ، سواء في المديح
او التوبيخ كما صنع الجاحظ ، ولما اتسع نطاق التأليف عند العرب
وضع بعض المحدثين والباحثين تراجم ملمومة في غير توحد ولا نسق ،
لمئات من الفقيهاة والمحدثات ، والشاعرات والمفكرات ، فيها عنفة
واستطراد ، وليس فيها النهج العلمي او الميزان المعهود
لاجرم ان القضية الذنوبية متوغلة في الدهر متشابكة شائكة ،
أغضت آدم ، واختلفت الآراء والأهواء فيمن كان سبب المعضلة
الكبرى ، فتحين ناس الى آدم عنفوا حواء واتهموها بالاغراء والاغواء
وقد فاتهم ان القرآن ذكر آدم وحده بالغواية والعصيان ، ولم يفرّد
حواء بوسوسة الشيطان

من ذلك الحين ضاقت المرأة باتهام الرجل وأوهامه ، فراحت

تنظيم وتبحث عن منصب لقضيتها ، وقد عاشت خلال العصور وفي كل الأمم والشعوب تسعى الى غايتها لاتييم عنها ، وكانت تطل فترة بعد فترة ، من كوى بيتها او من منافذ خدرها متبسمة متأمل ، مشرفة على عالم لا بد ان يأتي ، ولم يكن يعوقها عن ان تحلم طويلا . في اقبال هذا العالم ، فهي في منزلها بين أمومتها ومطبخها ، وبين ثقافتها وزينتها كانت ولا تزال توافقه الى عالمها المنشود ، ترتقب اليوم الذي يسوده الانصاف ، وتعم الناس جميعاً حقوق الحياة وكرامة الانسان

وطال حديث الرجل عن المرأة دون ان يتغير رأيه فيها ، وما أكثر الألفاظ التي كررها ورددها على توافد الأيام حول القضية النسائية ، حتى غدا الكلام على المرأة موضوع من لاموضوع لديه ، فمن التشهير بالخطيئة المزعومة ، الى ترديد التهمة التقليدية والوصمة الأبدية بالوعظ المكروور المعاد عن اغراء حواء ، والحقيقة العليا عن كل هذا بمعزل ، فكان دأب الرجل الذي يعلم والذي لا يعلم ان يستهين بها ويقضي بشؤونها وفق أثرته وهواه ، مستعيناً بقوة جسمه وتراث رأيه وحكمه .

وقد مرت المرأة بعصور كانت تبدو فيها او تحتجب ، حسباً كانت تقضي الأوضاع القومية والنظم الاجتماعية فتقاذفها أمواج التغير والتطور التي كانت بين مد وجزر في خلال تلك العصور حتى استهدفت حياة المرأة وخطواتها لأحداث وصدّات ، جعلتها تتخلف حيناً وتقف أحياناً ، فاذا ترحزت الانثقال والاغلال ، ولاحت لها بشائر

الحرية والخلاص ، اخذت ترفع صوتها وحببتها ، لتشعر الرجل بأنها
إنسان ، لا تمثال او متاع ...

وأتيح للرجل - في خطرات الادب الغابر والمعاصر ان يصور
حياة المرأة ويعبر عن مشاعرها وخواطرها كما تخيل تلك الحياة وتمثل
تلك المشاعر والخواطر ، لا كما كانت او كما هي ، إذ لم يعرف المرأة
على حقيقتها فقد عرفها غير أمه وزوجته ، وغير بنته وأخته ، وتناول
قضيتها وفيها دعواها وشكواها ، وكان في كل شأن لها هو الخصم
وهو الحكم ...

اما الرجال الذين صوروا عالم النساء وعبروا عن مظاهره
وخفائيه ، وخاضوا في شؤونه وشجونه وهما وزعما ، فكان معظمهم
من المفكرين والشعراء في الشرق والغرب ، غلب عليهم الطبع
الموروث والرأي الذي لم يتغير على الرغم من تغير الحضارة وتطور
الثقافة وتبدل الآفاق ، فضيقوا الابواب على المرأة بأشأت المطامع
والأحاييل ، لكي تبقى حبيسة الدار ، وطاهية المطبخ ومربية الطفل ،
او لتكون زهرة ندية عطرة يتمتعون منها بشم وضم ونظر ، فكانت
كتبهم وآثارهم تدور حول هذه الآراء والاهواء ، ولم تخرج المرأة في
شعرهم وادبهم ، وفي فلسفتهم ومنازعهم من نطاق مخلوقة وجدت على
الارض لتتم سعادتهم وتقوم بخدومتهم ...

وجاء عصر المرأة ، او هذا العصر الذي طغت فيه حدود وفكت
قيود ، واثارت ثورات سياسية واجتماعية ، طالب فيها الناس بحقوق
لهم مغصوبة او منهوبة ، تحفظها الاقوياء ، واحتكرها الطغاة والطمعاء

وشاعت المعرفة بين النساء في الشرق والغرب ، فتطلعت كل واعية او راقية الى الشعوب التي جهرت بمشاقها ودستورها في ايمانها بالحقوق الانسانية للجنسين على السواء ، وقارنت المرأة العربية بين غايرها وحاضرها ، وبين تخلفها وتقدمها لتبين بين نساء العالم مكانتها وتعد لنهضتها الراهنة عدتها ، فجعلت تستوحي فطرتها وكرامتها ، وتمحص ما دركت من معرفة وثقافة وما عندها من هممة وطموح وقد اتاها من اسباب الوعي والتحرر والتقدم ما يعينها على التماس بغيتها التي ينبغي ان تحققها في قريب او بعيد ، فهي لاتسعى الى اغتصاب حق اختص به الرجل او اكتساب امر ينأى بها عما خلقت له ، ولا تريد ان تزاخم بالمناكب في غمرة السياسة ، واثرة الاحزاب ، وما لا ينبغي للمرأة ان تطعم فيه الجموع من اجله ، فتفقد حرمتها وعصمتها وانما تسعى جاهدة دائبة ، متوقفة متمهلة حيناً ، ملحة متعجلة احياناً للوصول الى حقوقها المعقولة المغيبة التي منحها اياها الانسانية ، ولم تحرمها عليها الطبيعة ولا الشريعة .

وعاد الادب في نهضة المرأة التي جدت ووجدت ، يتظرف على حساب النساء فيستهزيء بمجركتهن الجديدة ، ويزدري اهدافها ويحلمن غرامة الشهرة المصطنعة ، وكم ادت المرأة العربية في خلال العصور امثال هذه الغرامة وذلك الحساب ، واذا بنا بة مصر توفيق الحكيم يمضي على بعد الزمان في ركب « اريستوفان » فيستغل « اهكومتة » القديمة ويعيدها سيرتها الارلى الى دنيا العرب بعد ان

يضفي عليها حلة طريفة من عنده ، ويسميتها « براكسا » او مشكلة الحكم ، عارضاً نساء العصر في صور المتطاولات على الرجال ، ومنتهياً من تمثيلته الى جعل المرأة كدأبه ، موضع السخرية والزراية ، ولا يدع عدو المرأة سانحة من السوانح دون ان يندد في صدد النهضة النسوية بتورط الشرق في ايمانه الاعمى بالمذاهب الغربية ، حتى راح يطمس روح المرأة مدفوعاً بما يسمونه « مركب النقص » الى آخر هذه التهاويل التي سئم الناس تردادها

وراح كاتب الشرق الاستاذ العقاد ينشر في ذلك الحين كتابه « هذه الشجرة » مشفقاً من توريط المرأة فيما لم تخلق له ولم يخلق لها ، فهي لانصلح عنده لشيء ، وليس فيها من المزايا والسجايا ما ترقى به الى سوية الرجل ، فيجد مطالب المرأة الحديثة سابقة لاوانها ، فهي نزوة من نزوات العصر ، وطرارز حديث في طراز الفكر السائي يشبه ما يتعلق به المرأة من تجديد الازياء

وغير هذين الصرحين كثير من ادبائنا المعاصرين يتغفغمون ويجهلون في القضية النسوية فلا ينصبون صدورهم في منارة المرأة فهم يتناباً لنصالتها في نضالها ، وانما يترسون وراء آراء قالها غيرهم في النساء ، فهم يروونها على الرواية من غير ان يدلوا بأي رأي فيهن ، وناقل الكفر في زعمهم ليس بكافر ...

كذلك رأت المرأة ان الادب لا يخلص لها ولا ينصفها ، لان موضوعه الفن والجمال وهي موضوعه ايضاً ، ولا نصرة لها كما تشاء

عنده ، لأن مالک العبد يؤثر ان لا يعتقه ولا يطلقه ، فارتدت الى المجتمع الذي اخذ يتحرر ويخلص من قيوده تنشد فيه النصير المنصف فوجدت ان رجال التشريع والاصلاح لا يتخرجون من انصافها على ضوء الشرع والعقل والمصلحة العامة في جنود الحاجة القومية والضرورة الاجتماعية ، وكانت المرأة العربية تؤمن بربح قضيتها في محكمة العصر ، فقيض الله لها من قضاة المجتمع وقادته انصاراً عادلين ايدوها على اخلاص وبصيرة ، وكان في طبيعتهم سفير العروبة والكنانة محمد علي علوبة باشا والرائد العظيم علي زكي العراقي باشا وقائد الاصلاح القومي والاجتماعي بصر النابغة محمد حسن العشماوي باشا وسواهم من المشرعين المصلحين الذين يرون ان العلم وحده هو الذي ينصف المرأة ويعدها لتسلم رسالتها الموعودة ، وقد بادر بعضهم فناسد الحكومة بأن يكون لها يد في هذا الاصلاح والتطور ، وقدم الحجة والبرهان على ان المرأة المتعلمة والمثقفة حق البحث والنظر في امور تمسها وتمها ، كتعدد الزوجات وحضانة الاطفال والطلاق ، واختيار الزوج والتعليم النسائي ، ونحو ذلك ، ورأى احداهم بأن تأخذ المرأة حق الانتخاب اذا كانت متعلمة ، فكيف تحرم هذا الحق الصحافية والادبية ، والحقوقية والطبية ، والنابغة الموهوبة ، والاستاذة في التربية والتعليم ، وامثالهن من ذوات الفكر والرأي ويقرر لكل أمي وعامي ممن لا يدري شيئاً من شؤون الامة وقد يمثل الشعب كله رجالاً ونساء ، والنساء نصف الامة ، افلا

بحق المثقفة اختيار من تراه أهلاً لهذا التمثيل ، ان لم يتح لها منها
كانت متمسكة متفوقة ان تنوب عن شعبها وبلادها كنيابة الرجال
وكانت الجمعيات النسوية والهيئات الاجتماعية التي تسير التطور
وتستجيب لحاجة الزمن تؤمن بهذه الآراء الاصلاحية التي تمس حياة
المرأة المعاصرة فكانت تدعو اليها وتسعى في كل ساحة وبادرة
الى تحقيق مطالبيها المشروعة ، حتى نضجت هذه الآراء فأتيح للمرأة
السورية المتعلمة في هذا العهد التقدمي الجديد ان تسبق غيرها من
نساء العرب الى حق الانتخاب ، وقد اظهرت حين مارسته كفاية
وحصافة وبعداً عن التحيز والاستغلال الذي يقع بين الرجال
ولا يحسن الرجل ان اخذ المرأة حق الانتخاب هو كل ماتنشده
من الانصاف ، فان هنالك حقوقاً الصق بالنساء واجدى على البيت
والمجتمع من الحقوق السياسية كحق الحياة الكريمة والقسمه العادلة
وتنسم الحرية المقدسة وغيرها من الامور التي طمس الرجل حق
المرأة فيها، غير ان المجتمع الذي دب فيه الوعي، والزمن الذي يشبه
السيل فيجتاح الحدود والسدود ، هما الكافلان انصاف المرأة ...
فلقد هتف قاسم امين من ضفاف النيل قبل نصف قرن ، طالباً
تحرير المرأة وسفورها ، فضحك منه من ضحك وعجب لامره من
عجب ، ولكن الزمن حقق بغيته ورأيه واستجاب لندائه ، فاذا
المرأة العربية في هذا الشرق تخرج من طور العزلة والانقباض ، الى
طور التحرر والنشاط

وكيف اتفق الامر ، في غلو المكابرين وانصاف المحلصين ، فان
اشعة الامل بزغت في هذا العصر من افق المرأة ، فعمت انوارها
الاولى جانب الدنيا ومن هذه الاشعة الساطعة مطالع الزهر من
نسوة معاصرات ، تقسمتهن اقطار العرب كما تقسمت الروضات
ازاهيرها الفواحة ، فطلعت نسوة بمنازات فكراً وثقافة ، وعبقرية
وشخصية ، وجهاداً واخلاصاً ، هن الرعيل الفاتح للنهضة النسوية
المعاصرة ففي مصر غير الفقيديات الخالدات ، كئيرات عديدات ، تتعطر
الشفاه عند ذكرهن كالسيدات انصاف سري واسماء فهمي وسهير
فلماي وعائشة اقبال راشد وسيزا نبراوي وفي سورية ولبنان
وفلسطين والعراق طليعة من اصيلات الرأي والفضل والنبوغ
كالسيدات غنيرة سلام الخالدي وسلمى صايغ وابتهاج قدورة ،
وماري بني عطا الله ونازك عابد ، وامة السعيد ، وسواهن من طلائع
النهضة وبشارتها في كل بلد عربي يتطلع الى حياة حرة عادلة

وما اتيت بهذه الاسماء الا مكاثرة ومفاخرة ، وليس لاحد ان
يقول هؤلاء قلة ، وسواد النساء ليس كمثلهن ، فأجيب ومتى كان
سواد الرجال افضل ، فان الافذاذ قليل في الجنسين ، ولعل الرجال
سيثوبون الى العدل والتبصر ، فلا يتخرجوا من انصاف المرأة
والاعتراف بحقها ، حين يجدون هذه الطليعة التي تريدها الايام عدداً
ومدداً ، فيسلسون في العناد وينقلبون من اعداء الى اصدقاء ،
وسيكونون معنا في الرأي ، بانه ليس منا بعض نسوة هن حرب

علينا وعلى الرجال معاً في ما يصطنعون من عداوة لجنسهن حين
ينحرفن عن الحقيقة ويخالفن عن مقتضيات العصر ، فيلججن بان تقتصر
المرأة على خدمة البيت وهن ابعد النساء عن البيوت ، واولئك
المتطرفات المتطرفات فانهن الد الخصاص للجنسين اذ كن بالتبذل
والاستهتار والشذوذ من اسباب عداوة الرجال للنساء

على ان الصحيح في الدعوة التي تمكث في الارض ويذهب كل
شيء جفاء دونها هي ان تمضي المرأة الى طبيعتها وعلى سجيبتها متزودة
بالعلم والاخلاق ، وقد عرفت نفسها وقدرت التبعات ، حتى تستطيع
وحدها ان تحل قضيتها بيدها ، حسب حاجتها وطاقتها ، وحينئذ
تكون مثل جيش فاتح ، تداعى امامه الحصون ، وتغنو له
الخصوم ، فتتحقق لها الامال ويطلع عليها صباحها الكبير

السوريات

في النضال الوطني

اطلق كلمة المرأة السورية لا اقصد بها طائفة من نساء
هين هذا الوطن دون طائفة ، ولا جماعة دون جماعة ، وانما
اجعل الكلمة شاملة نساء هذه البلاد التي شارك كبيرها وصغيرها ،
غنيا وفقيرها ، في بناء مجدها الحديث .

فاذا تتبعنا اطوار النضال الوطني الذي تمرست به المرأة السورية
ووقفت حياتها عليه اسوة بالرجل ، وجدنا ان السورية الواعية كانت
تعمل من سياسة الضغط والاستبداد ايام الحكم التركي الذي كان
باسط الجناح على هذه الديار والامصار ، ثم نما فيها هذا الاحساس
وغرسته في نفوس بنيتها وبناتها في عهد الانتداب الفرنسي الذي كان
ينتهي سلطانه عند عتبة الابواب ، فاذا اغلقت المرأة السورية بابها
عليها ، بعد عودة من مظاهرة او مناوئة ، بقيت تتعهد نفسها
وذويها وتثير فيهم النخوة والحمية حتى يتاح لها يوم آخر

ولست اليوم مؤرخة فاستقصي حوادث الماضي ، واساليب السياسة
التي نفخت في الجبل المتحرر الصاعد روحاً عنيفة تجلت في تمرده
وجهاده ، وقد واكبته المرأة الوطنية وآثرته في كل محنة
ومؤازرة ، اذ كانت تشعر بشعور اهليها ومواطنيها الذين كانوا الضحايا
الاوائل للحرية المنشودة - وانما افتح الآن عن صفحة مطوية خالدة
كتبها الزمان منذ جلا الترك عن هذه الارض ، ليحفظ لسوة سورية

سطوراً غراً محجلة في تاريخ الوعي القومي والنضال الوطني فاذا بعشنا هذا الماضي الذي ضج بالاحداث والخطوب ، طلعت علينا دمشق بثوبها لحقها وكرامتها ، وأنفقتها من عتو الحاكم الغاشم ، وقد غضبت لغضبته حلب الشهباء ، عرين « هسانو » و « الجابري سعد الله » فحنا الشمال على الجنوب ، وماجت المدائن والقرى بالأبابة الساخطين ، فبرهن الشيخ المسن ، والمرأة المخدرة ، والفتيان والاطفال هاتقين للخلاص والاستقلال

على ان اروع المظاهر الوطنية مابرزت فيها المرأة السورية ، متعلمة وامية ، تتقدم الحشد المرصوص خطيبة تثير الحماسة والكبرياء ، او طالبة غضبي يخفق في قلبها حب الوطن ويعرب نداؤها وسياؤها عن هذا الحب ، ففي جميع الحركات القومية كانت السوريات نسوة وفتيات ، يقفن وقفة اللبوءات الابيات في وجوه المستبدين ، فما لاحت لمن سانحة الا بادرن فيها الى ارسال الاحتجاج تلو الاحتجاج الى الهيئات الدولية والحكومات المحلية معربات عن شعور الامة في نعمتها وثورتها على سياسة غاصبة غاشمة

في تلك الايام الشداد ، وعلى الرغم من كل تعنت وإحراج لم تهيب السورية سجناً او سلاحاً ، ولم تخش رصاصاً ، فقد تلقته بيدها او بصدرها دفاعاً عن ولدها واهلها ولم تنهزم في صدمة مامة ، او هجمة قاحمة بل ضربت الامثال الرجال على البسالة والفداء ولم يكن اشجع من اولئك النسوة المتحججات اللاتي كن ينطلقن

من الاحياء القديمة في دمشق ، وقد انقطع الدرب فما يجسر جند
المحتل ان يمر به او يتسلل اليه خشية الحجارة التي كان يرشق بها صداً
لعدوانه وطغيانه ، اما اولئك الشجيعات فكن ينتزعن من الارض
الخصي ، ثم يحملنه في اطراف الملاءات الى ذوبن من الثاثرين ، حتى
تدمى تلك الايدي الناعمة وهن لا يبالين خشونة ولا حرجا .

ولقد بقيت هذه الروح النسوية الحماسية قوية مفدّية ، تكمن في
الاحياء الحديثة حيناً وتظهر في الاحياء القديمة احيانا ، منسرحة من
اعماق الميدان الى جنبات الشاغور ومن سفوح الصالحية الى عطفات
السهانة والقيصرية ، وما من هبة مواتية او وثبة سانحة للرجال في
هذا النضال الا كانت المرأة فيها الروح التي لاتنام على ضم ولا
تستخذي لضعف او اضطهاد ، تستوي في ذلك المتعلمة وغير المتعلمة
لان الشعور الوطني لايعوزه الا قلب خفاق بحب الوطن ، مؤمن
بحقه وحرية ، والنضال من اجله وفي سبيله حتى الفداء ، غير ان فئة
من المترفات كان نصيبهن في الجهاد اقل من نصيب الفئتين الوسطى
والدنيا مناولة ومراسا ، وما عرف تاريخ الكفاح الوطني امرأة
مترفة قد انحدرت من برجها الى الشارع والحوامات فدميت يدها
او طعنت في نحرها ، ولا تثريب عليها فان نهضات الامم في الشرق
والغرب وثوراتها الدامية كانت الاعباء فيها ملقاة على كواهل
الطبقتين الوسطى والدنيا دون العليا ، ولست بمتجنية على فئة من
هذه الطبقة التي نعمت وغنمت حين كان غيرها يشقى في البلاء والفناء

فارت فيها من النسوة الفضليات من انصرفن في الشدائد والمحن ،
الى اعمال الاحسان والاسعاف

وثمة ظاهرة نسوية في هذا النضال لم تبد في بلد عربي غير سورية
فقد عرفنا نساء الاقطار الشقيقة والمجاورة ساعيات الى نهضتهن و الى
مشاركة الرجال في الجهاد الوطني بتوجيه زعيمة او زعيمات ، كن
يمشين في الطليعة ويجمعن الكلمة ، او يحفزهن الهمة والعزيمة ، الا في
سورية فان نساءها كبريات وصغريات ، متعلمات واميات ، كن
يستجبن لنداء الوطن دون ارادة خاصة او قيادة عامة ، مندفعات
الى نضال الاحتلال من عند انفسهن وقد امتلأت قلوبهن بمعاني التحرر
والاستقلال ، والذود عن حرمة الحمى ، فيكان الشعور الوطني هو
الداعي الى الجهاد النسوي اسوة بالرجال ، لا يبتغيين من ذلك حاجة
ولا صيتاً ، ولا يرتجبن جزاء ولا شكوراً ، وكانت منهن من مضت
الى النضال متلثمة منكئة ، كما تكتمت من قبل خولة بنت الازور
وان في تاريخ الثورة السورية صفحات غراً لم تنشر بعد ، قد تلالأت
في سطورها بطولة السوريات المناضلات اللاتي كانت الغوطة الخضراء
تحنو عليهن وتحببهن من غدر الاعداء ، فكم من ام تكلى واخت
معذبة وزوج والهة كانت تغذي الوطن بالاعزاء من الابطال والشهداء
في الايام الاضراب الجبار ! يوم كان المتظاهرون الثائرون يتألبون
على المتارس والحصون ، يرشقون العدو بالحجارة ، ويتلقون الرصاص
متأبين غير هيبين ، وكانت النساء تزودهم بما هو اشد من السلاح
في بذل المال والارواح
وليت حسن الحراط يروي من طباق ثراه نبأ اولئك النسوة

المناهلات اللاتي رافقن البطل في تمرده وجهاده ، فرقدنه في اكناف الغوطة يوم شد شدته الصاعقة على هجمات الاعداء ، حتى اذا وقى البطل شهيدا بكنهه القلوب بالحسرات ، وثارت الثارات لمصرعه ، ومن يدري قرب واحدة منهم قد صارت اليوم شيخه تروي اصبايا الجيل وفتيته ، ايام ذلك الصراع الذي بهت العدو ولفه في بحران فتستهل الرحمة مع الدمعة على الشهيد حسن الحراط ، وكم ضمت الغوطة الحضرء جسوم مجاهدات ماظن الثرى الا مترقفاً بهم ، اذا جادهن الماء نبت فوقهن الزهر ، فواحاً يعطر منهن لايبلى !

وفي المحنة الحمراء يوم ثار الجبل لثورة الوطن ، وفيه بنو معروف وسلطانهم الاطرش المغوار لايعرفون الهوان ، هبو ابطالاً مناجيد ونساء مناضلات ، فكان الجيل بأجمعه شعلة نار ، لدفع الضيم وحماية الجار . وهل كتب التاريخ سيرة اولئك الحاططات ، اللاتي تأبين على الخطيئة ابان اضراب ثقيل طويل ، دام شهرين متتابعين ، تاب فيه اللصوص والجارمون عن كل منكر لاجل الوطن فاقتدت البغايا بهم فاذا هن تائبات متأبيات على الفحشاء .

واذا كتبت الصفحة الاخير من تاريخ النضال للاستقلال كان للسوريات الابيات يوم مخفوف بالدم والنار ، استخففن فيه بالخوف ورضين بالجراح حين تعرضن للموت والحظر فكانت الفئة الاولى التي اسست الهلال الاحمر السوري اول من خف من نسوة الشام الى المعون والقداء في سبيل الجلاء ، وفيهن فوج مغامر من اصيالات الوطنية والجهاد هن السيدات : اسماء خوري ، ثريا حافظ الرئيس ،

فاطمة وفلك دياب ، سنية وبدرية ايوبي ، سامية مدرس ، وحياة ومارية العظم ، وسواهن من المناضلات وفيهن السيدة الجليلة زهراء العابد وما تزال المرأة السورية على طوابعها الروحية وحماسها الوطنية لم تتخلف عن النضال في زمن الاحتلال او في عهد الاستقلال ، متبعة آثاره واطواره ، لم يتسرب اليها الوهن والضعف ، على الرغم من طول الجهاد والنضال ، وبغيات الانقلاب بعد الاستقلال ، فاذا فتوت الاحداث والخطوب هدأ النضال النسوي حيناً ، وسرعان مايستجيب بغة مستجيباً للحاجة والشعور

ولعل ابرز ظاهرة وطنية في حياة السورية المتعلمة وعيها القومي وتبناها لحوادث التغير والتطور في الاوضاع السياسية والاجتماعية بعناية واستقصاء ، لاتعبر حماها الاراجيف ولا تبني رأيا الا على الحجة والبرهان ، ولئن بدا فيما مضى تفاوت في الشعور الوطني والشعبي بين مختلف الطبقات النسوية ، فان مرد هذا التفاوت الى اثار الطائفة المترفة اسباب السلامة والعافية ، فكان اذا دهم الحمى خطب فادح لملمت هذه الفئة المترفة ماخف من اثقائها وغلا من احمالها ، واتخذت سبيلها هرباً الى مصر او لبنان ، ناجية من زحمت الاحداث وصدومات الفجآت ، حتى اذا هدأت الشؤون وكان الشعب يومئذ يضمد جراحاته ويتفقد ضحايا العدوان ارتدت تلك الفئة الى بيوتها حامدة ربهها على النجاة والحلاص ، وفي الحقبة الاخيرة جمعت الآلام والهموم على احساس متجاوب متقارب ، فعم الشعور الوطني نساءنا جميعاً ، مترفات وغير مترفات ، فما تحيق بالحمى ملة من الملمات حتى يسري كهرباء

هذا الشعور في عروق الرجال والنساء على السواء ، ويتردد صدى السخط من ادنى البلاد الى اقصاها ، وقد تجلى مثل هذا الاحساس مواساة وحديباً على اخواننا النازحين من عرب فلسطين ، وفي جهود الجمعيات القومية والخييرية ، فنزلت الطبقة العليا الى السوق بكرايم نسوتها ، يجمعون الغذاء والكساء ويسعفون من امضهم الجرح والتشريد فاذا كانت المرأة السورية المثقفة قد ادركت بعض حاجتها وغايتها ان تكن بلغت بوعيا وشماثلها طرفاً مما تبتغي من آمالها الوطنية وحقوقها المشروعة ، فانها لم تفرغ من نضالها البويء الذي لم تصطنعه سبيلاً الى حكم او منصب او تمثيل ، وهي مجاهدة على الايام في سبيل الذين لاحيلة لهم ولا وسيلة من المساكين والمحرومين علماً وقوتاً وهي بجندة حياتها وروحها لبيتها وأسرته ، وكرامتها وعروبته ، لاترتجي من اجل جهادها وتجندها إلا وجه الحق وفناءها ليبقى الوطن وهذا النضال النسوي بشير بمطلع عهد جديد للمرأة السورية الواعية التي تؤدى رسالتها وتمضي الى اهدافها دون نصير او معوان الا العلم والايمان ، وان في الرجال المتعصبين المتصلبين من استهان بنهضتها وغرس الشوك في طريقها ، فما عليها وهذا شأنها الا ان تناضل بالحجة والثقافة والاخلاق ، دون ان تحيد عن فطرتها وواجباتها الاولى وحينئذ يكثر الورد في طريقها وبقل الشوك ، وهي التي ترست بالآفات والعقبات في نضالها ونهضتها ، فلن تعوقها واحدة منها دون الوصول الى غايتها المثلى .

مجالس الأدب

عند نساء العرب

لأريب في ان الامة العربية من اعرق الامم التي برزت في أديها
وأحاطته بالعناية والرعاية ، فكشف عن عصورها الزاهية والكالحة ،
وكان لها ميراثا خالدا على الايام ، ولعل الشعر اروع ماعبر عن
خواطر العرب وقرائحهم ، وأبدع ماصور طبائعهم ووقائعهم ، فقد
سار معهم الى حومات الوغى ورفرف عليهم في ظلال السلم والامان
وقديما قيل ان الشعر العربي كان في الجاهلية ديوان الامة ، فيه تجد
أنباء ايامها وألوان حياتها وصدى امجادها ، ففي مجاهل ذلك العهد
البعيد الذي توامت اطرافه على الجزيرة العربية كان للأدب حفاوة
وجلالة ولأهله عزة ومنعة ، وحيثما اقيمت للأدب قيمته راجت
بضاعة اهله ورجحت اقدارهم ، وكان ثمة مواسم موعودة ومجالس مشهودة
يجتمع فيها الناس بعضهم الى بعض فيتناقلون الاشعار ، ويتبادلون
الأخبار . وكان سوق عكاظ اكبر مجلس من مجالس الادب في
جاهلية العرب ، فيه استطاعت الخنساء الشاعرة اخت صخر ، أن
تنقد شعر حسان بن ثابت الانصاري ، وان تأخذ عليه مزالتق في
بيته المشهور الذي يقول فيه :

لنا الجففات الغريلمعن في الضحى

وأسيافنا من نجدة تقطر الدما

لقد كان عكاظ - ساعة وقفت فيه الحنساء تجادل حسانا فتسقط
في شعره مواضع الزلل والخطأ - حافلا باعجاب الرجال في أدب
المرأة، شاهد على مكانتها عندهم، وكأنني أرى بعين الخيال ذلك الحشد
الحافل الذي جلس في بهرته النابغة الذبياني في صفة له في عكاظ
وعقدت فوقه راية الشعر على قبة حمراء من آدم ، ووقفت الحنساء
بين يديه تنتقد الرجال وتتصدى للأحكام الأدبية قائت : يا حسان ،
لوقلت الجفان لأحسن ، لأن الجفان أكثر عدداً من الجفنات
وقلت يلمعن ولو قلت يبرقن ، وقلت في الضحى ولو قلت في الدجى ،
وعددت أسيافاً ولم تعد سيوفاً ، وجعلت الدم يقطر ولم تجعله سيلاً
فكان بيتك الذي تفاخر فيه وتنافر أقل شأنًا وأضعف معنى . فيضجل
حسان وسحب وراءه ذبول الحبية في حضور شاعرة ناقدة شهدها
الفرزدق وأنداده بأنها بذت بشعرها فحول الشعراء .

ولو عدنا الى جاهلية ابعده ، الى أيام امرئ القيس ، لأشرفت
علينا المرأة التي يسمونها أم جندب ويقول فيها امرؤ القيس :
خليبي مرّا بي على أم جندب

لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

وام جندب هذه كانت لها مع امرئ القيس مواقف فيها نقد
وتنقير ، وفيها بعد نظر وتفكير ، كانت تصغي لشعر شاعرها
وتكشف عن رأيها فيه ، بجرأة وصراحة ، ولو سلمت كل نصوص
التاريخ الجاهلي ووصلت الى أيدينا لوجدنا فيها اخباراً عن أم جندب
التي كان يمر بها الملك الضليل ليقضي عندها لبانات فؤاده المعذب

ولقد تزوجها حين هرب من المذنب ابن ماء السماء ، والتجأ الى جبل
طىء «أجأ وسلمى» فأجاره اولئك القوم وزوجه منها ، وانه لبأته
ذات صباح علقمة وهو جاثم في خيمته وجنبه ام جندب فيتذاكران
الشعر ويتنافران فيه ، ثم يتحاكىان الى ام جندب بعد ان ينشد
امرؤ القيس قصيدته التي يقول فيها :
فانكما ان تنظراني ساعة

من الدهر تنفعني لدى ام جندب
الم تريا في كلما جئت زائرا
وجدت بها طيبا ولم تنطيب
ويقول فيها :

فانك لم يفخر عليك كفاخر

ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

حتى اذا انتهى امرؤ القيس من قصيدته التي يشيد فيها بمحاسن ام
جندب اخذ علقمة ينشد أبياتا من شعره فبهزها السرور والاعجاب ،
وفضله على زوجها غير مخدوعة بشعره فيها ، فغضب عليها امرؤ القيس
وكان بينها شقاق وفراق ، فطلقها انتقاما منها وتزوجها علقمة من بعده .
فيأسقى الله عهداً كان على جاهليته قد أنجب من النساء حاتمتين
في الادب حازمتين في نقده ، هما ام جندب والحفساء اللتان كانتا
من اوليات النساء اللاتي أوتيت على الفطرة حصافة الفكر وحضور
البديهة وصحة الاحكام .

وينحدر بنا الزمان فنجد من النساء شاعرات وخطيبات ، يقلن

الشعر عفر الخاطر وعلى سجية الالهام ، ويرتجلان الكلام بحضرة الخلفاء والأمراء فيكون فيه فصل الخطاب ، كما وقع للوافدات على معاوية في مجلسه المهيب اذ كن يصدعنه بالحجة الدامغة ، ويقرعن سمعه بحجة القول وروعة البيان مفضلات خصومه عليه ، فيفتح لهم هذا الاموي العظيم صدره الحليم ويخرجن من عنده مكرمات محترمات ، متقلات بالعطايا والهبات .

هذه الإمارة ببعض مجالس الادب عند نساء العرب ، بل هي سوانح وهنديات كان للمرأة فيها لحظات انتقاد وبدئية احكام وحرية تفكير وتعبير ، اما المجالس الكبرى التي لمعت في سماءها كواكب الأدبيات فكان أسطعها في عهد الامويين الذي أئبغ الادب في آفاقهم ودنت قطوفه في دنياهم ، على أن اشهر الراقي اختصن الله بمواهب الشعر والجمال وبدائع النقد والنعمة هن من البرزات الشريقات كعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، وعمره الجمجمة ، وثريا بنت علي وغيرهن من نساء قریش المترفات الظريقات . هؤلاء وسواهن خلعن على الحياة الاجتماعية طرافة ومرحا ، وشاركن الرجال في تجديد الادب ورواج سوقه ونشره بين الناس . فلقد كان هن مجالس يقد اليها الشعراء ليتناشدوا القريض فيفاضلن بينهم ويشرحن فنون شعرهم ودقائق معانيها ثم يجزلن لهم الهدايا والجوائز ، بيد ان احفل مجلس نسائي تألفت فيه قرائع الشعراء المطبوعين ولمعت عبقرياتهم هو مجلس السيدة سكينة بنت الحسين زعيمة المساجلات الشعرية ، والمطارحات الادبية في زهوة ايامها

وكأني بها وقد جلست في ههوها الرحيب متكئة على وثير الحشايا
تحف بها الصواحب والوصائف وخلفها جارية زنجية تروح عنها حرّ
العشايا بمروحة من ريش النعام ، واذا امامها على غارق مصفوفة
أشعر من قال شعرا في عصر الامويين ، الذي فاضت فيه الخيرات
على اهل الالمية والاصوات ، وهم جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل
بثينة ونصيب ، جاءوا عميدة المجلس بشعرهم وكل منهم يمني نفسه
برضاها عنه واعجابها بقريضه ، فقالت السيدة سكيمة للفرزدق كيف تقول :
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا

أحى يرجى ام قتييل نغادره

فقلت ارفعا الامر اس لايشعروا بنا

واقبلت في اعجاز ليلى ابادره

ابادر بوابين قد وكلوا بنا

وأحمر من ساج تبص مسامره

ماذا حملك على إفشاء سرها وسرك ، هلا ستوت عليها وعليك ، ثم
انثنت سكيمة الى جرير وقالت له أنت القائل :

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجمي بسلام

قال نعم . قالت : أفلا اخذت بيدها وانت عفيف وقبك ضعف .
ثم نقدت غيره حتى جاء دور جميل فأعجبت بقوله :

الا ليت شعري هل ابين ليلة

بوادي القرى اني اذن لسعيد

لكل حديث بينهم إشاعة

وكل قتيل عندهن شهيد

ثم منحتهم من الجوائز الغالية ما لم يحملوا بمثله من الخلفاء الذين كانوا يحبون الشعراء ويمجدون عليهم ، فكانوا يتقبلون حكمها الذي لا يرد بقبول حسن وهي العنيفة في نقدها ، المزاحة في طبعها ، النزاعة الى التهمك والتندر . فكان مجلسها سبيلا لتنافسهم في الخطوة برضاها ونوالها ليكسبوا الصيت البعيد والمثوبة الراجدة .

✓ ولم يقتصر مجلس السيدة سكينه على رعاية الادب ، وانما كانت فيه عناية بالطرب ، وفي هذا المجلس دقت مزاهر ونقرت اعواد وكان يؤثر فيه صوت على صوت ولحن على لحن . ✓

كذلك كانت عائشة بنت طلحة حفيدة ابي بكر الصديق تكرم الشعراء وتستمع لما يقولون ، فتقارن بين شاعر وشاعر ، وتوازن بين قصيد وقصيد ، ولئن تسرب الشك الى هذه الاخبار المتواترة عن تلك المجالس النسائية وعندها بعضهم من الكبار التي ترفعت عنها الشريفات المحصنات تحرجا من جلوسهن الى الشعراء ورواتهم لما لهن من الصلات بآل الرسول وصحبه الاكرمين ، فان الأخذ بصحة هذه الاخبار تكريم مضاعف لهن إذ أن زعيمة عظيمة مثل سكينه بنت الحسين يأتينها الشعراء على عصمة وحشمة محتكمين اليها فنقد اشعارهم وتكرمهم لما يزيد شرفا في الادب على شرف في النسب . واذا اقبل عصر بني العباس ومرّ على الناس بحيله ورجله ، فرسانه على الصافنات الجياد يدكون الحصون ويفتحون القلاع المبين ايام السفاح

والمنصور ، فلا يكون في الفترة الالى منه ذكر للادب النسوي ،
حتى اذا أغمدت السيوف وجبت الخيول ، قامت بغداد على ارض
العراق ميادة بالبنخ والتوف ، طالعة من مغانيها حسان الجواري
والقيان ، فكان منهن المدامات والمغنيات ، ولم يكن من حرائر
ذلك العصر شبيهات بأديبات العصر الاموي اللواتي اسهمن في تجديد
الادب ورعايته . لكن هنالك على العدو اليسرى من حوض البحر
الابيض المتوسط حيث رقت الطبيعة ورفت على ضفاف الوادي الكبير
والوادي الصغير قام ملك للعرب رفيع العماد هو ملك الاندلس التي
تسمى خيال اهلها وفاحت من فنونهم ازاهير الموشحات عاطرة بربا
الشاعرين ابن هانيء ولسان الدين ، وقد كانت قرطبة جنة الدنيا في
ذلك العهد السعيد ، فيها اثمرت قرائح النساء ، وانحسرت مواهبهن
عن ارق الاشعار وابدع الخطوط ، كما يرى ابن فياض في تاريخه عن
اخبار قرطبة - التي ظهر فيها مائة وسبعون امرأة ، كلهن يكتبن
المصاحف الشريفة بالخط الكوفي ، الى جانب الادبيات والشاعرات
الصادحات كالعنادل ، بشعر أنبتته غرناطة وبلنسية وقرطبة فيه من
فن الجمراء والزهرء كل خالب اخاذ .

أما أعظم مجلس ادبي قام في قرطبة فهو مجلس ولادة بنت
المستكفي بالله احمد الخلفاء الامويين في الاندلس كان يختلف اليه
اكابر الامراء والوزراء ، ويسارع اليه الشعراء والادباء فتحاورهم
صاحبة المجلس وتناظرهم وتأخذ على آثارهم بالمغازم فتنتقدها بانصاف
واقتردار ، وتؤثر شاعرا على شاعر ومناظراً على مناظر . وكانت

ولادة شاعرة وراوية لمنظوم العرب ، وتحت قباب مجلسها بزغ نجم الشاعر ابن زيدون وتفتح نبوغه. وكان لولادة مع هذا الشاعر الذي جعل للاندلس مقاما معلوما في ديوان العرب علائق وثقى فحسده الوزير ابن عبدوس وسجنه وشرده وصادر امواله ، فقال ابن زيدون بولادة قصيدته الخالدة :

اضحى التنايى بديلا من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

في هذا المجلس الادبي لقي الشاعر مصرعه وكثر حساده وشائثه لان ولادة كانت به محترمة وله مقربة ، وكان نصيبه من حساده ادهى وأمر من نصيب عمر بن ابي ربيعة الذي كانت تكرمه السيدة سكينة حتى اثارت عليه الحساد واكثر الشائئين . فان ابن زيدون كتب رسالة على لسان ولادة سماها الادباء بالرسالة الهزلية لانه جعلها تمكماً بالوزير الحاسد خصمه ومزاحمه في مجلس ولادة ، هذا المجلس الذي توافر فيه المرح والنعمى ، وشاع فيه الفتون والبهجة وكانى انصور ولادة في مجلسها الانيق وبجنبها صديقتها مهجة الشاعرة القرطبية تحف بها الاماء ، ويدخل عليها العبيد ، بأيديهم الصواني والصحاف فيطاف بها على الادباء والجلساء المقربين ليعبوا سائغ الشراب ، ويأكلوا من الطيبات ، فاذا انتهوا من ذلك تناشدوا الاشعار وتداولوا الأخبار ، ولولادة تميل بالسمع نحو شاعر عن يمين ثم تنقلب باللاحظ نحو راوٍ عن شمال ، او تهمس همسات في سمع مهجة وبخامر البخور يتصاعد منها عقب الغنبر فيعقد له دخان رقيق في سماء

المكان حتى ساءة متأخرة من عشية سمار او هداة عميقة من ليلة قمره
ولم يكن مجلس ولادة خيالاً مرّ في دنيا الادب، ولو لم يطلع غير
ابن زيدون ورسائله الهزلية لكفاه تخليداً على تراخي الزمان بل
كان حقيقة متألفة في تاريخ المرأة العربية تحت سماء الاندلس ملأت
تلك الرباع الخضراء وانتجت على المشرق صوب اللاّليء العربية .
ولقد يمتد في سبيل البحث ، اذا استوفيت الكلام على مجالس
الادب النسوي في بلاد الاندلس ، فلا عد الآن من تلك الايام الحالية
من جاهلية العرب وعصور الاسلام وعهود الاندلس ، الى عصرنا الحاضر
فأعرض مجلساً للادب قام منذ ثلاثين عاماً على ارض الكنانة ، في
دائرة من دارات العبقرية في القاهرة الساحرة ، هناك كانت تصدر
فيه الجلوس لعظماء الرجال اديبة نابغة هوى نجمها منذ عهد قريب ،
وغاب عن عالم الادب يحياها الوضيء الذي تلاً بالعبقريّة والعذوبة
نحواً من ربع قرن ، هذه الاديبه هي الآنسة « مي » التي كانت فلتة
من فلتات العرب وأفذاذهم في العصر الحديث ارسلها لبنان الى مصر
لتكون الحجة على الرجال بعذب المقال وسحر البيان ، لقد طلعت
على وادي النيل في مستهل فتوتها فتفتحت عبقريتها الغضة على جمال
لبنان ، وتفجّر نبوغها عند سفوح الأهرام فجنت من ثمرات الثقافتين
العربية والغربية ما جعلها آية في سفر المرأة الشرقية ، واعجوبة في
مواهبها المنوعة ، وكان لها من توجيه ايها الصحافي الكبير وصحبه
الادباء ما حفزها الى الظهور بمجلس يعيد الى الازهان ذكرى المجالس
النسوية في عصور الحجاز والعراق والاندلس ، اما هذا المجلس الحافل

بأرباب الشعر والادب والسياسة فكان يفتح ابوابه لمرتابه كل يوم
ثلاثاء فيأتيه الادباء شريين وغربيين ممن طواهم الموت ولم يستطع
ان يطوي ذكرهم وآثارهم كالشعراء الملهمين اسماعيل صبري وولي
الدين يكن وحافظ ابراهيم و خليل مطران رحمهم الله . ومن الاحياء
المعاصرين اعلام الادب والصحافة والفلسفة : احمد لطفى السيد
والعقاد وطه حسين والزيات وغيرهم من جبايرة العقول والاقلام .
فاذا فات احدهم مجلس من مجالس « مي » اسف وندم لانه يعلم ان
كل سائحة من سوانحه هي وحي للادب الموهوب ووعي شامل لأشتات
المعرفة والثقافة .

وقد اتفق ان المرحوم اسماعيل صبري كان بعيدا عن القاهرة
في يوم الثلاثاء فأرسل بوقية للانسة « مي » بأسف لغيابه عن مجلسها
فيها هذان البيتان :

روحي على بعض دور الحبي حائمة

كظامى الطير حواما على الماء

ان لم امتع بمي ناظري غدا

لاكان صبحك يا يوم الثلاثاء

وما احسب الشاعر كان مغبونا في اجرة « البرقية » ، وقد فاته ما هو
اعز لديه منها ، فاته التمتع بأطياب الحديث عند نابغة الجبل .
ومن قبل ميّ ومجلسها في وادي النيل ظهر مجلس رفيع لاقطاب
الرأي والادب والسياسة في بهو الادبية النبيلة الاميرة « نازلي فاضل »
التي كان يحفل مجلسها الوقور بأمثال الامام المصلح الشيخ محمد عبده

ونصير المرأة قاسم أمين وسواهما من عظماء الرجال وصفوة الادباء .
وبعد «مي» تلفت القوم في مصر الى نور جديد طلع من صوب
الزعيمة الكريمة السيدة هدى شعراوي يرحمها الله، فكان منزلها الشرقي
الأنيق الذي يبعث مشهده ذكرى القصور البغدادية والاندلسية بشرفاته
ورواشيه يدعو نخبة المفكرين والسياسيين الى مجلس صاحبه التي
كانت تضي عليه من أنسها واريحيتها ما يصله بالمجالس النسوية السابقة
في تاريخ مصر الحديث ولقد دعيت اليه ذات عشة وشهدت من
صنوف رواده من كانوا المع رجال المجتمع المصري ونسائه ولست
بناسية ابداً حقلاً في تلك الدار الفخمة ضم من الكبراء لطفي السيد
باشا والمغفور له احمد حسنين باشا والدكتور حسين هبكل باشا
وهناك عرفت نابغة الصحافة العربية الاستاذ فكري ابازله

وهل كان بيت «السعيد» الذي انجب السعيدات كريمة، وعظيمة،
وامينة ، الاروضة غناء من اطرف روضات الفكر في مصر ؟ وكانت
ثمرات هذا البستان قبل الأوان ، فقد اطلع «الكريمة» صانعة
لعقول المصريات ، «والعظيمة» طبيبة من سوابق الطبيبات ،
«والامينة» كاتبة في طليعة الكاتبات ، وات مجلس امينة حافل
بالوان من الفكر والصحافة . جامع بين ثقافة الشرق والغرب ،
فيعطي رواده صورة حية عن المرأة المصرية المثقفة ، وغير هذا
المجلس ندوات اخر لها طوابعها الخاصة في النشاط الثقافي والاجتماعي
والسياسي ، وثمة في مصر ولبنان ندوات نسوية تتسم بمياسم غربية يختلف اليها
هواة الأدب الغربي وتظهر هذه المجالس بمظاهر اريستقراطية ، فارضا

تعيش في قلب القاهرة أو بيروت ، وروحها تحفق بلندن أو باريس
ومنذ ربع قرن كان مجلس الادبية ماري عجمي يحتفي بشعراء
دمشق وادبائها ، وفي هذا المجلس كان يدور الحوار ويطول النقاش
حول مشاكل النقد والادب ولم يكن الحديث جافاً عنيفاً، لان الآنسة
ماري كانت تطبع مجلسها بطوايع النكتة التي هي ابدآعلى طرف لسانها
كذلك اتصلت في هذه المجالس حلقات السلسلة الادبية التي
صاغتها اذيبات العرب قديماً وحديثاً، كانت سلسلة اغلى من الذهب،
بل هي حلى لاتبلى ، هي في آذان الزمان اسمى من الاقراط البعيدة
المهاوي ، المتدلية من آذان الحسان، ولئن طوى تاريخ الادب سجل
هذه المجالس النسائية القديمة فان في الامل المعقود والرجاء المنشود
ان تتجدد امثالها فتكون الحلقة الجديدة في هذه السلسلة الذهبية
الحالدة التي امسكت بأولها ام جندب زوجة امرىء القيس واخذت
بطرفها الاخير فضليات السيدات في مصر والشام ولبنان

واذا تبجح المكابرون وجعلوا من مجالس الادب في بلاد الغرب
اسباب نهضة شاملة فلا ينبغي ان يتناسوا ان مجالس الادب عند نساء
العرب كانت السبابة في الدهر الى الظهور والى التأثير في الحياة
الاجتماعية والادبية، فان مجلس سكيّنة ومجلس ولادة اقدم من اول
مجلس لاديبات الغرب ، ومجالس هؤلاء لم تقم الا في عصور متأخرة
كما يشهد التاريخ .

واذا كان لابد في الادب المقارن من ان تناظر ونشابه بين ادبنا
وادب الغرب كان لي ان ازهو اعتزازاً بمجالسنا النسوية القديمة التي

سبقت بقرون مديدة عديدة ، يرجع حدها البعيد الى اربعة عشر قرناً ، على حين نجد ان اقدم الندوات الادبية النسوية في الغرب لا يعود الى اكثر من اربعة قرون ، وتبدو ثمة ظاهرة من ظواهر المرافقة والموافقة بين الادب والمجتمع اذ كان ظهور المجالس الادبية النسائية عند العرب في اطوار ازدهار الحياة الفكرية والادبية ، فلولا روعة العصر الاموي في شعرائه الغزلين والهجائين لما طلع مجلس بنت الحسين ولولا ابن عبدوس وابن زيدون وتلك الطائفة من شعراء الاندلس وادباؤها لما كتب لمجلس ولادة حق الحياة والظهور ولما انبعثت اوربة بعد ثورة نابليون اضى هذا الانبعاث على مجالس الادب ابداعاً جديداً اذ كانت هذه المجالس قبل الثورة لا تنطبع بالادب وحده كما مجالس دوسفينيه وبومبادور ، اما مجالس ريكاميه ودوستال وسواهما فكانت مشرفة بزهرات المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وقد فاح شذاها في اوربة كلها ، وتركت تلك المجالس النسوية اثراً عميقاً في ادب الغرب المعاصر

• • •

هذه لمحة من لمحات العبقرية النسوية في الشرق والغرب ظهرت في تلك الندوات الادبية التي اطلعت ازاهير نبوغ في الجنسين كانت نفحاتها جام الروح وانس العقول

بطولة المرأة العربية

على الارض نار ، وفوق البحار دمار ، والجار يغزو الجار ، هذه
دأب الظالمين في ايامنا الكالحة السود ، يزهقون الحق وفي طفانيهم
يعمهم ، ساخرين من السلام والوئام ، دامرين على الضعاف بالقنابل
والحرب ، ليقموا على جماجم الضحايا ملكا رحيبا .
لقد غلظت قلوبهم ، وصفقت وجوههم ، فما يعبأون بالدمع
المسفوح ، ولا بالدم المسفوك .

عجبا . . . لا الحضارة تزعت من طباعهم الشراسة ، واستلت
من صدورهم الحسد والكيد والطمع ، ولا الثقافة استطاعت ان تعلمهم
معاني الحق والعدل والرحمة ، حتى صدق فيهم قول ولي الدين :
يظلم الناس بعضهم منذ كانوا

طال ظلم الانسان للانسان
لم اكد اتمثل اوزار الحرب ورزاياها ، حتى اخذني التأمل في
بنات حنسي ، فرأيت منهن في بلاد الغرب من لففن الرؤوس بالبياض
ووضعن على السواعد رباطا من الصليب الاحمر ، فضمنن الجروح
وحسمن النزيف ، وسارعن للنجدة والاسعاف ، ثم هزني الاعجاب
بتضحية النساء اللاتي حللن في مختلف المصانع والمصالح محل الرجال .
وعادني التأمل في ساح الشرف ومجال البطولة ، فرأيت منهن
في قديم الدهر « جان دارك » تقود جيشاً لانقاذ امتهن من الهوان ،

اذا ذكر قومها ، طأطأوا الرؤوس وقالوا عليها السلام ، ثم قفل الزمان راجعاً ورضن بالانداد ، فاذا الحرب الكبرى الثانية تفتح شدقيها لابتلاع الناس ، فيكون للمرأة فيها غير المواساة والحدب على الجريح مهمة يعجز عنها الرجال ، وتضول حياها معامع القتال ، تلك هي تسقط انباء السفارات لنقل الاسرار ، وايداع الاخبار والتوصل الى خطط التعبثات وادارة الوقيعات .

قلت لنفسي : اين هؤلاء من نساء العرب في ماضيات الحروب .
واين الصدمات التي تلقينها ، والمنايا التي رأيتها بما تكابد اليوم نساء الغرب على تطاول الزمان وتباين العتاد بينهما فتمثلت من اولئك العربيات اسرابا كن طلائع او رداثف للاجناد والزخوف ، يضربن الدفوف ويصفقن بالكفوف ، ويصحن منشدات هائفات حتى يجتمد الكفاح وتهيج الحماسة في النفوس ، فاذا رآهم الجنود ، وسمعوا تلك الاهازيج اللاهبة والزغاريد الصاخبة ، هبوا هبوب الرياح لينصبوا على الاعداء كاتسباب البلاء .

✓ يا بوماً لبطل مقنع ، قتل من قتل وطعن من طعن ، وهو لا يلاوي على شيء فلما رآه خالد بن الوليد في وقعة اجنادين يحسن الكر والفر تساءل : ليت شعري من هذا الفارس المغوار ؟ ولما هجم الروم حمل عليهم الفارس المتلفع ، فكان يزعزع كتابهم ، ويزحزح مواكبهم حتى ظننه الجنود انه خالد نفسه ، فسألو قائدهم عن ذلك البطل المغامر ، ثم تنادوا اليه وفأشده كشف الحجاب عن مجاه ، فما احار الجواب ، ولما الح عليه خالد اغمد الفارس سيفه وازاح اللثام عن

وجهه ، فاذا طاعة وسيمة تشرق بالبهاء والسناء ، واذا هي من
بنات حواء ، فرفع اليها صرعاها رؤوسهم باسمين ، وهم بين الموت
والحياة ، وكان آخر صوت مر بمسامعهم قول البطلة المجاهدة للزعيم
الغطريف خالد بن الوليد : انا خولة الكندية اخت ضرار بن الازور
من بقايا اولاد الملوك ، لم اعرض عنك الا حياء منك ، لاني من
ذوات الحدور وبنات السور ، أتيت مع نساء العرب لنشد عضدك
في الجهاد .

ولما استخلصت نفسها ونساء قومها من سرايا الروم انشدت :
نحن بنات تباع وحمير

وضربنا في القوم ليس ينكر

لأننا في الحرب نار تسعر

اليوم تسقون العذاب الاكبر

وماذا كان حال الخنساء حين استشهد اولادها الاربعة في وقعة
القادسية ؟ انها قالت : الحمد لله الذي شرفني بموتهم شهداء ، وارجو
ان يجمعني بهم في مستقر رحمته .

على ان تلك الشاعرة النواحة لم تبك فليذات كبدها لان الموت
تخطفهم في الحرب ، وانما ابكها صخر طربلا لانه مات على فراشه مغدورا .
أما يزال يدوي في سمع الزمان حوار اسماء بنت ابي بكر لابنها
عبد الله بن الزبير ، وقد جاءها مودعا قبل ان يعود للجهاد ، فشيخته
بهذا القول : امض في قتالك يا عبد الله فوالذي نفسي بيده لأن اراك
مجنذلا صريعا في سبيل الحق خير من ان اراك مدعنا للباطل ...
ولما صلبه الحجاج ، ونصب جثته على الجذع عاما كاملا بمعنا في

التمثيل بها ، كانت امه اسماء تتساءل بتسليم وكبرياء ، اما آن لهذا
الفارس ان يترجل ؟ فأية تضحية تلك التي جادت بها هذه المرأة
الكريمة الشريفة ، وأية بطولة تلك التي عزت في الآباء لتكون
للأمهات مثلاً على الزمان ؟

ثم اذا كره ضجوة النهار من غزوة أحد ؟ اصحرت اليها نسيبة
المازنية ، فكانت تأسو الجراح وتسقي العطاش ، ولما اشتد القتال
انقضت سيفها ودمرت على الصفوف المتلاحمة ، وطفقت تهول وتجول
بين يدي رسول الله ، وكل دفعت عنه الأذى وردت الردى ، حتى
اصيبت بجراح من طعنات الاسنة ورميات السهام وضربات السيوف ،
فلم تعباً بنزيفها الصليب ، وقد اخذت بروعة الجهاد ، وحلاوة الظفر ،
فشده من بطولتها المغاوير ، وشهد بها الأعداء . ولما اقبلت على النبي
المجاهد بارك عليها ودعا لها بالجنة ...

وفي الوقعة التي قتل فيها مسيامة الكذاب حلفت نسيبة بالله
لتعودن الى الجهاد فذهبت الى اليمامة ، وكافحت في حومة الوغى
لنصرة الحق وازهاق الباطل ، وعادت منها مبتورة اليد ، دون ان
تبالي ما اصابها ، فقد اظفرها الله والمجاهدين على المنافقين ، وشهدت
في المعركة عدو الحق مقتولا .

وكرر في تاريخ العرب صفحات بعد صفحات ، وكل في مطاويه
من مروءة المرأة وحميتها ، فاذا انا بعائشة ام المؤمنين زوج النبي صلى
الله عليه وسلم قد ركبته هودجها في وقعة الجمل ، واذا السهام تأخذها
من كل جانب ، وهي تستنفر الابطال وتدفعهم الى النضال ، حتى

صار هودجها من كثرة مانضته السهام كظهر القنفذ، وكان المناجيد
من المسلمين قد امسكوا بعنان الجمل فمزقت ايديهم وداستهم الحيل
غير ان ذلك العنان لم يخل من قائد يجر حتى قطعت عليه عشرات الزود.
هذه صور من بطولة المرأة في حرب الحسام والسنان. اما بطولتها
في تأييد الحق باللسان ، بين جبايرة الامراء والولاة فأبرع وابدع ،
وحسبك مثالا ذوات الجرأة والبلاغة والوفاء في صفوف « صفين »
من جدعن اسماع الخوصوم بحرية القول ومضاء الرأي ، واثمك صواحب
الامام علي - كرم الله وجهه - اللائي وفدن على معاوية ، وقرعنه
في مجلسه المهيب بالحجة الدامغة والعتب الغنيف .

ولئن عدنا الى خاليدات المآثر والمساعي في نبذ الحسام ونشر السلام
عند نساء الجاهلية ، لرأينا حرب داحس والغبراء جرت حروبا بين بني
عبس وبني ذبيان ظلت متسعة متفجرة ، كأنها البركان ، وقد كادت
تلف العرب بجحيمها دهرا طويلا لو لم تطفئها امرأة رزان ، هي بهية
بنت أوس الطائي التي زوجها ابوها من الحارث بن العوف المري ،
فلما رآته يتهادى في زينة العرس نأت عنه وأبت على نفسها ان تكون
زوجاله ، والعرب يقتل بعضهم بعضا فما زالت تؤثر حميته وتدكي
نجدته حتى خرج لساعته الى صاحبه خارجة بن سنان ، فنهذا الى
المحتربين وأصلحا ذات بينهم ودفعوا الديات من اموالهما حتى تهادنوا ،
وفي هذا تغنى شاعر الجاهلية زهير بن ابي سلمى بقوله :

سعى ساعيا عوف بن مرة بعدما

تبذل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من قریش وجرحهم

مينا لنعم السيدان وجدنا

على كل حال من سحيل ومبرم

تدار كتما عبسا وذبيان بعد ما

تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وما الحرب الا ما علمت وذقتم

وما هو عنها بالحديث المرجم

كذلك كانت مواقف العربيات المشرفة ، سواء كانت الدنيا
حربا ام سلمة ، فواءجبا لتلك الانوثة الناعمة الوديعة ، كيف تستجیل
بطولة باهرة وتقدير غالية في خوض الاهوال والنضال ، وفي السعي
لتوطيد السلام والامان وهل ارضعت المرأة العربية طفلها الا من
افاويق العزة والوفاء ؟ وهل قصت عليه وهو يافع وفقى الا ايام
العرب وسير ابطالهم واجوادهم ؟ وهل صبت في عزيمته وهو رجل
غير الشهامة والطموح والشم .

وقد يضيق المجال عن تعداد الشئائل والمآثر التي خلدتها ربات
البطولة وامهات الابطال ، ولقد كان امرهن في ذلك عجبا كأنه من
الاساطير ، والله ما انقطع جبل النسب بين اولئك المنجيات الفضليات
وبين خلائقهن الأبيات في مراحل العصور ، وكيف تنقطع وشائج
البطولة النسائية وصوت التاريخ ما يزال مدويا في المسامع والآفاق
عن بسالة المرأة العربية التي تسير على غرار الاسلاف في اباء الضيم
والاعتزاز بالشرف وحفظ الذمار ، سواء في ذلك المسيحية السمحة

التي فاض قلبها بالشهامة والوثام، أو المسلمة العصماء التي امتلأت نفسها
بالمروءة والسلام، وكيف اكتفي بالكلام على نساء العرب في
ماضيات الحروب، والحرب العالمية حافلة بمجاهدين، فان
منهن من رفعت عقيرتها بالحق امام جباورة الحكام فأنقذت من
الردى والهوان من انقذت وادارت ملاجئ الاحسان وساعفت في
المصحات، ثم انحسرت تلك السنون عن عهد جديد اشرفت فيه
تباشير النهضة النسوية الحديثة، على ايدي طائفة من المثققات
الواعيات .

فالمرأة العربية التي شاركت الرجل في بناء الأمة وخلق
عبقريتها، وسجل لها التاريخ بطولة في الحرب ومآثر في السلم،
ستبقى ابدا مشار المهم ومنار الظلم مادامت تولي وجهها شطر المثل
العليا، وتغرس في نفوس اولادها حب الخير والحق والوطن .

هل المرأة وفية ؟

نجدول في خاطري قصتان : انهما لتلوحان كما تتلوى افعيان ، كل واحدة منهما تحمل السم الزعاف . وقد ذكرت وانا افكر فيها قول الجاحظ في اول كتاب « العصا » : لاتلد الحية الاحية . فقلت اي الحيتين ولدت الاخرى ؟

اما السم الزعاف فسيروى القارىء مكنونه ، واما القستان فأحدهما لأديب التهم الفرنسي « فولتير » ، والثانية للزعيمة الصينية زوجة شىخ كاي شيك واثن كان فولتير حياً بيننا ، فلا يعنيني ماسيكون من أمره مع السيدة الصينية هل كان يشكوها الى محاكم الادب او يترك أمرها الى اهل النقد . وانما الذي يعنيني وينبغي ان لايفوتني الاهتمام به ان كلتا القصتين تحلمان لباس الخيانة على المرأة وتدعيان ان لاوفاء عندها ماعاشت بين الرجال ...

ففي القصة الصينية يؤتى الشيخ الوقور « تشوانغ تشو » لباب الحكمة ، ويوهب إتيان المعجزات ويذهب في مناصب الحكم وألقابه ، فلما عرضت عليه الوزارة فرّ بزوجه يخبط في الوادي هائماً على وجهه ، فرارا من هذه الوزارة التي رأى فيها ظلم الانسان لاخته الانسان ، قانعا بزوجه الخلسة الأمانة ، التي كانت تهدد نفسه بالحب والوفاء فرّاً في بعض الطرق بامرأة مجلبة بالحسد ، مكبة على قبر رطب التراب ، وبيدها مروحة تلوح بها فوقه ، فسألها الحكيم الصيني عن سبب فعلتها ، فقالت : انها عاهدت زوجها على ان تبقي وفية له بعد

موته حتى يحف تراب قبره ، وقد جاءها خاطب قبل ان يحف هذا التراب ، فأكبت على هذا الجذث تنشفه بالمروحة . فيجفل الحكيم من هذه المرأة وتسري في صدره رغبة بوفاء زوجته ، وطالما ادعت له انها وفية مخلصه .

وكان شيخا اسقى على الفناء ، فلما دمر عليه الموت اصطنعت زوجته الجزع والاشفاق ، فأخذ عليها ان لا تتزوج بعده ، وان تدفنه في جانب مكتبه بداره ، ولبست عليه الحداد فلم تدهن ولم تتزين ، حتى وفد تلميذه من القرية النائية فاتخذ لها الاحابيل ، ظاهرها الاسى وباطنها الهوى ، ثم اغراها بالزواج فنقضت عهدا ونكثت وفاءها وغدت بالتلميذ متيمة مغرمة ، وقد ارادها على ان تنقل الضريح الى خربة خلف الدار وان تعطيه المال ، وتعترف له انها لم تكن تعد زوجها حكيما عليما ، وما كانت تواتيه حبا .

فعلت كل هذا راضية مطمئنة ، فاذا اقبلت عليها البهجة بعد العرس بوغت بنازلة فادحة تفري حشى عروسها الذي اخذ يستغيث طالبا اليها ان تعالجه بمنح رجل مات منذ قريب فاذا اكل المخ ما حله الشفاء ، فتسارع المرأة الى ضرب زوجها ، وانها تهدمه وتفكه ، واذا بحكيم الصين يناديها من جوف القبر ، فبهتت المرأة لهول الخيانة وروعة البغثة .

هذا مجمل القصة الصينية المخاوقة . واما القصة الفرنسية فان الحكيم البابلي زاديك وقد اصاب عينه العور في سبيل زوجته الاولى اذ كانت هذه الزوجة تكره ان تمس بصرها الى سجنته فتري عوارها ،

وبقيت تنازعه امرها حتى طلقها ، وجعلته لا يركن بعدها لوفاء النساء ، وما لبث ان تزوج بعدها امرأة كانت تظهر له من البر والوفاء مالاحد لتصويره ، فغدا بها يوما على ضاحية فرأيا امرأة في لباس الحداد مكبة حمال قبر وهي تحفر مجرى لساقية ، فسألاها الخبر ، فقالت : انما نذرت ان تبقى لزوجها وفيه بعد وفاته مادامت الساقية تجري الى جانب قبره ، وقد جاءها خاضب يلح في زواجها ويستعجل ، فقامت الى الساقية تحول مجراها لتمضي بعيدة عن القبر ، فيكون ذلك تحلة لها من نذر الوفاء .

فيوقر الشك نفس الحكيم زاديك بزوجه الوفية ، وتدور ايام فيدركه الوهن ، ثم تتخذل قواه فاذا هو على سرير الموت ، وامرأته امامه باكيه لاهفة ، حائلة بأث تبقى على الوفاء له ، فيموت قريب العين بعد ان وصاها بدفنه في بيته ، ففعلت ، واقامت على قبره نادبة ناحبة ، حتى اثأها صديق له كان يعرف سره ودخيلته ، فاصطنع الوجوم خطبها ، وبذل لها الود والمواساة ، ثم آل امرها الى الغرام فتعاهدا على الزواج .

وان المرأة لفي ثوب عرسها ، اذا بعروسها صديق الحكيم زاديك يصرخ من الم في بطنه وهو مطروح ارضاً فتكب عليه فزعة مفدية ، فيقول لها : لايشفيني سوى ارنبة انف لرجل مات منذ قريب ، فتب ويبيدها سكين فتفتح عن زوجها المتوفي غطاء ضريحه ، وانما لتهم بجذع انفه اذا به يمسك بيدها ويقول لها : لقد كنت يا زوجتي أعظم وفيه !

وسيعلم القاريء الذي يشغلني وعيه ، اي سم عنت بالقصتين ،
وأية افعي كانت كل واحدة منها تفح وتتلوى ، وسيعرف معي ان
هاتين القصتين - بما اكلت الواحدة من لحم الاخرى - عليها سمات
الوضع والتخيل ، وفيها عنصر التهمك والتظرف .

كذلك مضت القصتان في آفاق الادب ودنيا المرأة ، ومضت
معها كثير من هذه الاقاويل التي نسجها الخيال واصطنعها الحقد
والتشفي ، على انها حقائق راهنة وحجج دامغة على غدر المرأة
وبعدها عن الوفاء .

وليس لي ان احاسب الزعيمة الصينية التي طالما شغلتها السياسة
عن مثل هذه القصة وقد جاءت بها مرددة مقلدة ، وانما أوأخذ شيخ
الساخرين فولتير بما آخذ به قريع جنسه الشاعر الفريد دوموسيه
الذي قال : ان فولتير دسّ الحساد والفساد في نفوس الشباب
بعصره . وصور الشاعر موسيه في كتاب اعترافاته كيف جنى
الشعراء والادباء بآرائهم وأهوائهم على الحقيقة والواقع .

ومن هذا القبيل مايرده رواة الاخبار من نوادر واحاديث
يتفككون بها ويتمكمون ، على غدر المرأة ومكرها ، وانها لأقاويل
تجري في ايثار وفاء الرجل فتزعم انه وحده الوفي الامين وان المرأة
هي الخيانة الجحود .

وتأملت الى أية غاية من إفساد المجتمع يمكن ان تجري بالانسانية
مثل هذه الألهيات الهازلة ، فيكون منها ابدأ غذاء لمظنة الرجل
بالمرأة ظنّ السوء ، وقد خلقت من نفسه ليعيشا في مودة ورحمة ،

حتى استقر في ظن أكثر الرجال خشية من المرأة وريبة فيها ،
ففنفروا من الزواج وآثروا الوحدة والعزوبة . وبلغ من سوء ظنهم
ان ارتابوا في كل امرأة ، فلورأوها قائنة لله لثذفوها برجم الظنون ،
واذا لمحوها في درب تجاوزت اصداء نفوسهم بالارتباب ، فحسبوها
ذاهبة للقاء عاشق ، وان أبصروها تتبسم ظنوا تبسمها شبكا لصاحب
ولم يقصروا معرفتها في الزواج وانما عموها ، فهن عندهم مأكرة
غادرة في كل مرافق الحياة ، وأسباب الصلات .

وانتصبت لهؤلاء المرجفين منارات دلتهم على عطفات الطريق
الذي سلكوه في عداوة المرأة ، وكانت تلك المنارات فلاسفة وادباء
ابتلاهم الله بالعزلة وسوء الظن والوسواس ، فصرخ في اواسط اوربة
شوبنهاور معلنا فساد المرأة وغدرها ، ملعلعا صوته كتناقوس على
ميت ، فأفزع رجال الغرب من النساء ، وصاح في الشرق شيخ
المعرة منددا بحبث المرأة ومكرها ، فصب عالمها في لزومياته سوط
عذاب ، وجردها من كل الفضائل ، وأعمها وأهمها الوفاء ... ، وكان
ابو العلاء - رحمه الله - بعيدا عن المرأة ، مصابا بالوسواس العقلي
الذي جر عليه لوم الناقدين حين بحثوا عقيدته ودخيلته وتخيروا في
إيمانه .

ولم يخل هذا العصر من لمر المرأة في وفائها كشيخ المتهمكين في
الغرب برناردشو ، ومثله فريتي من أدباء الشرق وخاصة في مصر ،
فكان من دأب هؤلاء الاقربين أن يتندروا بمقالاتهم ويتظرفوا باتهام
المرأة في وفائها ونهضتها ، بدلا من أن يحزححو العوائق دونها .

ويأخذوا بيدها ويسددوا خطاها ، فلو رجعت الى هؤلاء المتندين أو المتطيرين لرأيت في حياة كل منهم امرأة لفحت نفسه بجحيم من كيدها فراح يأخذ النساء بجريرتها تشفيا وانتقاما .

ولكن رويد الرجال ، أفكان الغدر وقلة الوفاء مقصورين على المرأة وحدها دونهم ، أليس فيهم من لم يمس الوفاء قلبه ، دأبه الغدر والتسكر ، وما أهون عليه اذا أيسر أو تحلل من الشرع ان يفارق فينسى من كانت تألفه في المنزل الحشن .

قيدوا الرجل بقيود المرأة ثم انظروا في مواطن وفائه إن كان يظل فيها مكان لوفاء واحد . . .

على انه ، وهو في مجبوحة حربته ، ضنين بالوفاء الا ماندّر ، ولو وفي ملأ الدنيا إشادة بصنعه ، وقل ان يفي بالحياة الزوجية اذ أن في الرجال من يبني بالمرأة الجديدة والزوجة السابقة لم يغير كفنها ، او يفكر في الثانية وهو يمشى مطرقا وراء نعش الأولى .

والرجل بطبعه أقدر على الغدر من المرأة وأكثر فزعا الى التحايل والتطاول وإلى التأويل والتعليل فيما ينقض من عهود ويخلف من وعود ، وان في مكر رجال السياسة ونكثهم للمعاهدات والوثائق لا كبر حجة للمرأة على غدر الرجال . وقد شاهدنا في حرب الامس أية قيمة للوثائق المخرجة والعهود المغالطة التي كانت من طواغيت العدوان والطغيان

وما كانت كل النساء وفيات ، فالغدر والجحود من شيمة الانسان ، وهما من الادواء التي يشكو منها المجتمع منذ كان ،

ولعمري ان غدر المرأة وتبكرها في كثير من الامر لا يتيان من الرجل نفسه . ففي القصة التي نشرتها السيدة السياسية الصينية ، نتبين ان الحكيم الصيني هو الذي ارسل تلميذه الجميل ليغوي زوجته الوفية ، فغلبها على امرها بالحيلة ، والمرأة اضعف من الرجل ، كما ان الحكيم البابلي هو الذي بعث بصديقه ليغري زوجته بالاحتيال فتوضى به زوجا جديدا .

فهاهنا الرجل الوفي لكي تجتهد المرأة الوفية ، وليس على من ند المعول ، ولو شئت الاستشهاد لضاق المجال ، ففي تاريخ العرب تقرأ العجب فيما اثر عن المرأة من وفاء ، كحديث نسوة أيامي - حسانا وغنيات - أبين ان يتبدلان بأزواجهن ازواجا آخرين ، ولو امراء وسلاطين ، كان فيهن من لم تخرج من ايثار الوفاء لزوجها بعد موته على ان ترضى بمحمد زوجا ، فامتدحها النبي مثنيا عليها ، بل كانت وفاؤها للزوج حيا او ميتا ، لا بعدله وفاء . وليس بفائتي ان اذكر عمرة بنت النعمان بن بشير التي قتلت باطلا على غير ذنب ، لانها أبت ان تقر لأعوان مصعب بن الزبير بكفر زوجها ، وتبرأ منه كما فعل قومه ، فجلدت وقتلت وفاء لزوجها وبقيها على ذكره . وفيهن من شوهت بحاسن وجهها ، فدقت ثدياها او جدعت أنفها لترد خطاياها وتصدن عن إغرائها وابتغائها . ككناثة زوج الشهيد عثمان بن عفان ، وخولة بنت زيان بعد مقتل زوجها عبد الله بن الزبير .

وبدا غدر الرجل في كثير من حوادث العرب ، فان «النوار» بعد ان سلمت قبائدها الى ابن عمها الفرزدق ليزوجها من يراه لها أهلا ،

وبعده كفوا ، جاء بها الى مسجد قومه بني مجامع وقال لهم : اشهدوا انني زوجت نفسي من نوار ، فرحسته نوار نافرة وهربت منه الى الحجام ، مستجيبة بابن الزبير ، وكانت قيود الأحكام تمنع مثل نوار ان تنكل عن الزواج بعد ان وكلت الى رجل أمر هذا الزواج .

ولكم كشر رجال مستبدون عن نيوب الغدر والجحود ، فاذا قلبت صفحة الزواج ، ونشرت صفحة السياسة والصدافة وجدت في تاريخ الغرب والشرق ، قديما وحديثا ، مثالب ليس مع مثلها نهوض حجة للرجال على وفائهم اكثر من النساء .

فويح حظ المرأة من الرجل ، انها آسفة متلهفة بعد ان كتب الرجل التاريخ وسجل الحوادث حسباً أملى هواه . ولكن من يدري لعل عهدا يقبل على المرأة فتكتب هي فيه التاريخ ، ويقرأ بعدها الرجال حوادث يقول يومئذ ناقدوها : ان المرأة كتبتها حسباً أملى هواها . ولم لا يعود الانسان بجنسيه الى التصافي والانصاف فيزيل الرجل من صدره الغل للمرأة ، ويؤثر المودة والرحمة ، وما الحياة داراً نتعادي فيها ونتفانى ، وهي أهون - كما قال ابو الطيب - من هذا التعادي والتفاني .

كيف تنموت ؟

جزى الله أبا حيان التوحيدي خيراً وخلوداً ، فقد جعل في تصانيفه أحاديث للسمر والمناذمة ، فيها إمتاع وهوانسة ، ونقد للأخلاق ، وصفاء في البيان ، فكان فيما رواه عن معاوية : أن جماعة من الكبراء ، سألوا الأموي الأول عما هو أبقي في سرور الحياة وأجل في النفس وأحلى فقال معاوية : إنه الحديث ... فقد ذقت الطيبات ونعمت بالذات ، وبلغت جهد ما يبتغي المرء من دنياه ، فلم أجد أبقي في النفس ولا أمتع للفكر من حلاوة الحديث وسحر الكلام ...

ولكم هششت لابي حيان كلما اطلعت على أحاديثه للوزير ابن العارض في ليالي الادب ، ومجالي الشعر والبيان ، فقارنت بين التوحيدي محدث الوزير ، وبين شهرزاد محدثة الملك شهربار ، ذلك يطوي الليالي في الحديث عن العروبة وأنساب العرب ، مزهوا بأجادهم ومآثرهم ، راوياً غرر أيامهم وحجولها ، او محدثاً يشكو به وهموم نفسه بفوات أيامه حين كان بحضرة الصاحب ابن عباد ، الذي تجهم له حسداً ، وشغله بالوراقة زمناً كاد يذهب معه بصره .

وتلك تقص أحسن القصص ، لسلاوى الملك وإلهائه عن الفتك بها ، كما فتك بأمثالها من الحسان ، في لياليه الماضيات .

قلت لألف ليلة وليلة : حدثينا عن دنياك الحالية التي ألفت على شرقنا الروحاني روعة وفتونا ، وبعثت في آفاق الخيال بغداد بقبابها القائمة ونهرها الفياض وكرخها الخمور ، باهرة الأعاجيب في قصص كلاسا طير ، عابقة بدخان البخور ، وكأنه طيوب نشمها فننسج من

سحابها الهفهاف ، أكوانا من التهاويل ، مواجهة بجنيات عبقریات
أطلعتن شهرزاد ، هذه المحدثه الساحرة التي صفت جبارا من
الطغاة في اغلال انوثتها وصباحتها ، وكان سلاحها البتار لسانها العذب
الخلاب ، فخیل إلي أني أرى الملك شهريار ، هذا الفاتك العاتي الذي
قتل أنضر العرائس وأجل العید ، لقد تمثّل لي وهو هائج كالأسد ،
مزبد كاللوج ، والغضب يتفجر من وجهه وقد كور على رأسه عمامة
مريشة ، غاض فيها رأسه ، ولف على كتفه وشاحا مذهبا مزر كشا
وحوله الحجاب والجواري يرفلون في ديباج أذهلهم عن غضبه ،
وصرخاته تدوي في أرجاء صرحه الممرد ، فتعقد الألسنة ، وترجف
القلوب هولا وحزنا على غيد أماليد ، سفك دماهن شهريار ، واحدة
تلو واحدة عند كل صباح ...

هذه شهرزاد فلتة من فلتات البيان ، وبدعة في الحسان ،
أرسلتها الاقدار لانقاذ بنات حواء من فتك شهريار ، فتبدأ ليلتها
بكان ماكان في قديم الزمان ... ويرهف الملك سمعه مأخوذا بسحر
حديثها ، حتى يدرك شهرزاد الصباح ، فتسكت عن الكلام المباح ..
لئن غابت شهرزاد فيما انطوى من آفاق بغداد ، فات اريج
حديثها مايزال يعطر مواهب الأدباء في الشرق والغرب ، فيستمدون
من فننها ومن وحيها روائع القصص ، وهي وان استحوذت على
النفوس بأساطيرها وتهاويلها ، فان نساء يعربيات قد ملكن العقول
والاسماع بمجاذبات رائعات ، فيها مطارحة بالشعر ومقارعة بالرأي
والحجة ونقد الأحكام ، ولعل معاوية الداهية ، الذي آثر الحديث

على كل مناعم الحياة ، كان مأخوذا بأحاديث النساء اللاتي كن يجلسن اليه متوددات مؤيدات ، أو يفدن عليه ناقمات نافدات .

•
• •

ما أشبه الحديث الحلو من ذكية واعية بمطفرة ماء قراح ، فهي ان لم تنقع الصدى ، وترو الغليل بدلت ظمأ العيون ، ولعل هذا التصور وقع في خاطر الشاعر حين سمع امرأة تتحدث دون تكلف ولا فضول ، فتخلب الالباب بحلاوة نطقها وبراعة وصفها ، فراح يقول فيها وفي حديثها :

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت

ودّ المحدث أنها لم توجز

شرك العقول ونزوة مامثلها

للمطمئن وعقلة المستوفز

وسامحه الله كيف يكون مثل حديثها شركا ، وما هو الا

العتيق والانطلاق

كان للعرب شغف بهذا اللون من فتون المرأة ، وهو حلاوة حديثها ، فأحب الخلفاء والامراء أن يطرفوا مسامعهم بحديث النساء كما طربوا بغنائن ، وكان اقبالهم على اقتناء الجوارى المحدثات اكثر من اقبالهم على القيان الحسان ، فان ثمن الجارية في عصر الرشيد والمأمون كان يقدر بحظها من الشعر والغناء ، وليس على قدر نصيبها من الجمال والدلال . وفي القيان اللاتي ثقفن اسحق الموصلي

من كانت منية الاسماع والنفوس بحديثها العذب المقال .
 وهل ملكت كليوبترة قلب انطونيو الا بسحر حديثها ، فانها
 كانت تطعنه بجملها وتداويه بكلامها . وقد بالغ الرواة فظنوا انها
 أسرت انطونيو بفتونها ، وفاتهم ان انفها الطويل كان يشوه ذلك
 ذلك الوجه الصبيح . وقد قال فيها أحد علماء الجمال : لو جاء أنف
 كليوبترة معتدلا لتبدل وجه العالم ... وهو لاشك يريد أن يعترف
 انها لم تفتن الروماني الجبار بجملها وحده ، وان هذا الجمال لو كمل
 لكانت كليوبترة فتنة الدنيا ، ولتطاحن عليها ملوك الارض .

وزاحم الرجال النساء على الخلفاء والامراء ، فقص تاريخ الادب
 العربي بأخبار الندام دون الندامى ، منذ كان يجلس الى حذيمة
 الابرش ندمانا ، حتى أعقاب العصور العربية التي كان فيها حفاوة
 بالمسامرة والمطارحة ، وكم في مطاوي ادبنا من احاديث تنثال عليها
 الطرافة والحصافة ، في كلام مأثور وعاء التاريخ للرجال ، ولم يحفظ
 في تضاعيفه الا القليل من محادثات النساء ولعل المرأة لم تكن في
 حسان الرجال غنية كل الحواس ، وغاب عنهم أن المرأة مها كانت
 فاتنة الخلق ، سابية الطلعة ، ولكنها لا تحسن الكلام ، فان جمالها
 الصامت معدود في التماثيل .

وما كان حديث النساء ادبا كله او جذا ، ولا سيرة او هزلا ،
 وانما كانت فيه حكمة وعاطفة ، وكان فيه فقه وتشريع ، فرواة
 الحديث النبوي قد صدر كثير منهم في مستهل الاسلام عن
 احاديث السيدة عائشة زوج الرسول أعظم محدثة في العرب ...

وكان الرواة يعنعنون الحديث صُعُدا الى أم المؤمنين التي بذت
المحدثين بدقة وعيها وروايتها . وهذا لعمرى منتهى الفضل والمجد
الذي بلغته المرأة العربية .

على أن حديث المرأة في نفس الرجل منها كانت ثقافته ، شدة
لفكره ورهافة لذوقه وشعوره ، بل هو ساوى له ومؤانسة . فكيف
إذا كان الحديث من مثقفة لبقة ، تحسن التحاور والتفاد ، وتتقن
المساجلة والمطارحة ، وهذا سر مجالس الادب عند نساء العرب .

فكم غلبت بلاغات النساء في الحديث كل خليفة داهية وعامل
جبار ، مثل ما كان من هند بنت عتبة ، وليلى الاخيلية ، واسماء
وعائشة بنتى الصديق ، ولكم سحرت عائشة بنت طلحة ، وولادة بنت
المستكفي ألباب الكبراء والشعراء ، بسرعة البديهة والذكاء ، وبراعة
النقد والادب ، وإذا ذكرنا هؤلاء لمعت في الخاطر مجالس حافلة
لسكينة بنت الحسين ، كان يسابق اليها اكابر الشعراء الامويين ،
طمعا في اصغاء بنت الحسين وعطاياها ، فكانت تنقد شعرهم وتجزل لهم
العطايا ، فذاع صيتها في الحديث وفصل الخطاب .

لقد غبرت تلك العصور ، وتراذفت الأجيال ، فإذا نحن في أيامنا
ولم تبطل المقاييس في حلاوة الحديث ، بل صارت به احفى ، إذ
جعلته فنا من فنون البيان ، لا يؤتاه الا القليل ، وصار لزاما على
المرأة المعاصرة أن تأخذ بأسباب هذا الفن ، لتستوفي ثقافتها ، وتكون
صورة حية في فطرتها وزينتها ، فإن اللوح الفني الذي يمثل المرأة

الجميلة انما هو جمال ساكن ، وما يكون متحركا في الحياة الا اذا
أوتيت صاحبه فن الحديث .

وغدا هذا الفن الجميل مجلى من مجالي الثقافة والحضارة في بلاد
الغرب ، وقد ازدهر عند الفرنسيين في عصور النهضة والتجديد
بمجالس المتوفات من المثقفات والاديبات ، أمثال مدام دوسيفنيه
ودوستال وروكاميه ، اللاتي كن يستقبلن في أبهى اعلام الادب
والفلسفة ، ويستلمن أكابر السياسيين الى مجالسهن ، ليتبادلوا معا
الاحاديث والآراء التي كان يتداولها الغرييون في ذلك الحين .

ولم يحرم أدبنا العربي ندائد أولئك الغربيات ، فأت نساء
عربيات كن في مستهل هذا العصر غرر الأحاديث ، بسداد الرأي
وحداقة الفكر وعذوبة الكلام . إذا كرة منهن « ميّا » في مجالسها
أيام الثلاثاء تحت سماء الكنانة ؟ ليت الزمان تقدم بي أو تأخر بها ،
اذن لأتيت مجلسها لايفوتني كما فات يوما شيخ الشعراء صبري باشا
فخلد الأسف عليه بشعره ، ولكنت استمعت فيه لغمات بيانها
ونعمت بجلالة حديثها ، وان في رجال العرب ادباء مازالوا ، كلما
ذكرت « مي » انساب في مسامعهم احاديثها ، وكأنهم يسمعونها
اليوم ، فيتمثلونها وقد عقصت شعرها ، بعصابة بيضاء ، وأخذت
طلائع الشيب تبدو على سواد شعرها كأنها نجوم ساطع في حلك
السماء ، ثم صارت تلك النجوم تتناثر وتلمع ويغيب الدجى ، حتى
عم البياض الافق ، وغاب ذلك الكوكب الدري .

كان يقبل على مجالس « مي » أئمة الشعر والبيان ، وأعلام الفلسفة

والصحافة، فتدور عليهم مجرى الحديث بوعي شامل لاتصنع فيه ولا تنطع ثم تدور عليهم بشراب من ماء غير مسكر ، مشفقة عليهم ، فقد كفاهم نشوة واحدة من سحرها الحلال الذي كانت تسكبه في حديثها العذب الأخاذ .

وطوى الردى « مياً » وانطوت أحاديثها في صدور الذين سمعوها ، وكأنها ازاهير أتى عليها الزمن وما تزال ندايا ، فليت سامعيها ممن اتصلوا بحياتها وصادقها ينشرون اليوم شذاتك الاحاديث وكان « مياً » كانت استهالة فنية لطلاوة الحديث النسوي ، فراحت من بعدها المحدثات يكملن مواهبهن في العقل والجمال بخلاصة اللسان واصطناع ما يقتضي الزمان من ثقافة المرأة المعاصرة التي غدت غير قانعة بوعي المعرفة ، في حدود انتهت إليها بفطرتها ودراستها بل أخذت سبيلها الى التحدث في المجالس المختلطة وغير المختلطة ، وساعدها على تحقيق الأمانى من أحاديثها اللطاف وجود الاذاعات ، فكانت وسيلة إلى شحذ لسانها واتساع بيانها ، حتى عرفت في أيامنا محدثات في مختلف الاذاعات ، بمصر وسورية ولبنان ، ممن يتحدثن بمثل ما يتحدث الرجل أو بما تجلت فيه المواهب النسوية والمزايا الفنية ، وزدن على ذلك بمثل هديل الحمام وناغم الكلام

ومن حق الأسماع التي أنست بعذب اللقاء وسحر الأداء والبيان أن أذكر لها لتهددها الذكري - صديقي نابغة الأديبات وفخر الجيل النسوي الجديد الدكتورة سهير القلماوي التي طالما حدثت وكان لها الأثر الجميل في أحاديث النساء

• • •

شأن بين فن الحديث ولغو الكلام ، فكل حديث كلام ، وليس كل كلام بحديث ، انه موهبة كالشعر والموسيقى وقد يؤتاها غير المثقفات ، فكم من أمية يروق حديثها وتهفو الاسماع اليها ، وتكون خيرا من نساء تطفو الرطانة على أشداقهن فيخدعن الساذجات بلغوهن وتكلفهن الكلام فيما يجهلن من ضروب المعرفة .

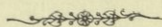
ولقد سئل أحد المحدثين عما دار بينه وبين اناس كلمهم وأطال ، فقال تكلمنا كثيرا ولم نتحدث ، فذكرني بما تتداوله النساء في احاديثهن ، وما يعيهرن به الرجال .

انهم ليتندرون عليهن ويزعمون ان المرأة لاتتقن من الحديث الا الكلام على الطعام وألوانه ، والثياب وازياؤها ، والخدم ومشاكلهم والملاهي وسلواها ، فان صح هذا في اكثر نساءنا ، فان الرجال ، مع سبقهم الى الثقافة وكثرة تمازجهم واتساع آفاق الحياة امامهم ، ماتزال احاديثهم اذا جدوا لاتعدو اللغو في السياسة والاحزاب .

وما يكون فن الحديث الا بعد فن السماع وتسديد الموهبة بالمرانة والاطلاع ، فلنسمع كثيرا نتحدث قليلا ، وليكن كلامنا حين يدعو الكلام ، ولنجعله مطابقا لمقتضى الحال ، فانه اذا خلا من حكمة او فكاهة او فائدة ، فالصمت خير وأولى .

فما أجل يوما نعلم فيه تعليم البنات ، وتتأرجح فيهن المواهب تأرجح الأزاهير ، فيأتي عليهن حين ، يكون منهن محدثات ، يجددن عهد

الغواير في عصورنا الزاهرة . وما فن الحديث الا مرآة لثقافة المرأة
وذوقها ، ودليل على وعيها ولباقتها ، ولا يكون سحره حلالا الا
اذا اشتمل على الخير والهدى ، وأدخل المسيرة المشروعة على النفوس
فكان جام الروح ، ومراح العقول من نكد الدنيا وهموم الحياة .



حاجات ملهيات

هنالك على السفوح المقدسة من عرفات ومنى ، حيث يتناوح
الأخشبان بهامتيهما العاريتين ، وفي عدوة المسعى بين الصفا والمروة
تتهادى نساء في الحجيج ، متلفعات بالأبراد البيض : مؤثرات بأنقى
الجلابيب ، يدهنن الى الله بوجوه مشرقة بالرضا ، وقاب فياضة
باليقين ، جياشة بالحنين إلى بيته الحرام .

وكما يزم الرجل رحاله ، ويلملم أحماله ، ويطوى اليد أو يخمر
البحار ، ويطير في الفضاء ، ليصل إلى ديار بني هاشم وعبد شمس ،
بإيمان لا يزعزعه زمان ، وآمال توثها الأجيال من الأجيال ، كذلك
تسارع نساؤنا في مواكب الرجال ، إلى دارة الوحي وكعبة الدين
لا يصدن عن الحج حرب ولا بعد ، ولا يعوقهن غدغامض مجهول
فاذا ربلغن مكة المكرمة ، وباشرن فريضة الحج ، بدأت
من الشعائر بالاحرام فلبسن كالرجال إزاراً ورداء جديدين
ناصعين بالبياض ، ثم والين التلبية ، رافعات بها الأكف ، مبدئات
ومعيدات ، الله أكبر ، الله أكبر ! لبيك اللهم لبيك ... فيتردد
هذا الهتاف ، ويضيع في زمازم الحجيج كلما علون شرفاً ونجداً ، أو
هبطن سفحاً ووهادا ، فمن حول البيت العتيق كم طوفت مسلمات
قانتات ، مستلمات الحجر الأسود ، ميامنات فيه أشواطاً سبعة مباركة
ولكنهم وقين ثمة بالنذور ، وتشبثن بالأسطار الشريفة ، داعيات إلى
الله بالرحمة والغفران ، وسلامة الاياب إلى الأوطان ...

كانت زبيدة بنت المنصور زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد تنوق للحج كلما حج الرشيد الذي كان من دأبه أن يغزو عاماً ويحج عاماً ، فلما قتل ابنها الأمين ، واستولى المأمون على الخلافة ، جاءت زبيدة الشكلى حاجة محتسبة عند بيت الله مصابها في ابنها ، فأكبت على المبرات ، وأجرت عيناً تعرف حتى اليوم باسمها ، يحد عندها الحجاج سكوناً للهاثم ، ورّياً لظاهم ... ومن يدري ، فعلت السيدة زبيدة - يرحمها الله - كانت إذا وقفت عند أستار الكعبة تمزج الرحمات بالدمعات ، وتنشد قول الحسن بن هانئ في ابنها الأمين :

طوى الموت ما بيني وبين محمد

وليس لما تطوى المنية ناشر

لئن عمرت دور بمن لأحبه

فقد عمرت فيمن أحب المقابر

و كنت عليه أحذر الموت وحده

فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

ثم تنثنى إلى الصدقات ، فتأمر بامداد المعوزين والمساكين : فتكسو العريان ، وتطعم الجائع ، وتعطي الفقير ... ومن الغريب ألا يسلم عصر من عصور الأدب من مزاحمة الشعراء للنساء ، ولو كن في مناسك الحج ومحارب العبادة والزهادة : « ألم ترائهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ » .. كذلك كانوا يرتقبون أسباب الدعابة والصبابة ، ويتلهسون مراتع الفتون ، فيجيدون داعي القلب ، كما يجيبون داعي الرب . على أن أشهر وأكثر من

تصدى للنساء بالغزل والثناء هو عمر بن أبي ربيعة ، فقد اتخذ من أيام
الحج موسماً للهوى ومجانبته ، وكثيراً ما وقف عند الحطيم هائم النفس
يتوقب وينشد :

أيها الرائح المجد ابتكارا

قد قضى من تهامة الأوطارا

من يكن قلبه صحيحاً سليماً

ففؤادي بالحيف أمسى معاراً

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا

كل يومين حجة واعتباراً

وقد بلغ من عبثه وغزله أن نفرت كل حصان رزان من الحج ،
وأبى أحرار الرجال على نسائهم تأدية هذه الفريضة كلما جاء هذا
الشاعر المخزومي إلى تلك المناسك المباركة .

كان عمر يقتحم العقبات ، ولا يحجم عن تعقب الحسان وتبعب
العواني في مغاني الطائف أو بين مسارب العقيق وواديه البهيج ، مها
لقي من تهديد الخلفاء والمتوهمين ، ومن وعيد أصحاب الغيرة على
الحرمان ، ولكم هجر مكة أناس فراراً من هذا الشاعر الغزل ،
وخشية تشبيهه بكرائمهم وتنويهه بأسمائهم وكشفه عن معالم الجمال
فيهن . أما مواكب النبيلات من شريفات الحجاز أو العراق والشام
في مواسم الحج فكانت حافلة بالموادج والرواحل ، مثقلة بالمتاع والزينة
روى أن عائشة بنت طلحة حجت ذات مرة ومعها ستون بغلاً
عليها الرحائل والقياب فعرض لها عروة بن الزبير قائلاً :

عائش يا ذوات البغال الستين

أكل عام هكذا تحجين ؟

فأرسلت إليه : نعم يا عرّية ! فتقدم إن شئت . فكف عنها
وندم على فضوله ...

ولم تكن كل النساء في عصر عمر سواء في التنكر للشعراء
والتحرج من غزلهم وهوهم ، فالجميلة منهن كانت تتمنى أن يسير في
ذكرها الشعر ، ولا سيما في شعر عمر بما يزيد لها تيبهاً بحسنها ويفرى
بها الخطاب . وكان الشاعر العرجى يتصدى في موسم الحج لمن
عناهن بقوله :

من اللاء لم يحججن ببغين حسبة

ولكن ليقتلن البرء المغفلا

ولكثير عزة وجميل بثينة والأحوص ووضاح اليمن أشعار في
بعض الحاجات المتوفات ، بمن رضى بالأماديح وعدن تباهاات بلقيا
الشعراء ، مباهايات بغزلهم ونسبيهم ، حتى أن النواصي على مجونه لحق
بجنان جارية الثقفى إلى طريق الحج فقال :

حجججت وقلت قد حججت جنان

فيجمعني وإياها المسير

وقد لقي « وضاح اليمن » أشد الويل والعنت من جراء هيامه
بذوات الجمال والدلال ، ولحافه بهن في مواسم الحج إلى البيت الحرام
ويحدثنا التاريخ عما فعل أبو الأسود الدؤلي بعمر بن أبي ربيعة إذ
شب بزوجه واقتفى أثرها في الحج حتى أخرجها فأخرجها عن طورها

وشكته إلى زوجها أبي الأسود الذي شقت عليه فهلة عمر ، فأشقاءه بالقصاص

وكانت لتوبة عمر أوبة وخيبة ، إذ عاود التغزل والتشبيب بالمصونات المحصنات ، حتى انه ما كان يتورع عن التعدي لنسوة الولاية والخلفاء ، فقد تجرأ على فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر ابن عبد العزيز ، وعمر اشد الأمويين اعتصاماً بالتقوى والحفاظ على السمعة والشرف ، فغز عليه ان لا يدعن عمر بن أبي ربيعة لأمره ، فأمر بنفيه وتشريده

وفي الواقع ان نساءنا في الحج كن في القديم يؤدين هذه الفريضة بشوق وحماسة وحافز ديني عميق ، وهنالك كن يشهدن في ذلك الموسم العظيم مباهج الاسلام وغزة الدين وفضل المساواة وكانت الحاجة تعود الى بلادها سعيدة فرحانة ، مزهوة بما نالت من شرف الخطوة بالأرض المطهرة التي فيها اول بيت وضع للناس والتي ضمت قبر الرسول عليه السلام وصحبه الأكرمين وأطلعت آفاقها المنورة كواكب رجال تسلموا مفاتيح الدنيا وملكوا زمامها وعلموا الناس الحرية والعدالة والمروءة

أما نساء اليوم من نظائر المترفات بالأمس وفضلياتهن السرييات فقلما يدور الحج في خواطرهن وهن مستطيمات إليه سبيلاً ، إذ ان تيار الحضارة قد جرفهن بريحه العاتية نحو الغرب فسيحن في بلاده ، وزرن عواصمه الكبرى للمعرفة والسلوى وكان إليها حجهن المنشود على أني لا أنمط الحقيقة في هذا الصدد ، فان المصريات الحديثات

على أخذهن بأسباب الحضارة المعاصرة ، والثقافة الجديدة لايتخلفن
عن شد الرحال إلى الديار المقدسة ، ولعل حجهن يكون أعلى إمانيهن
في العمر ، فقد شهدت من إقبالهن وتلفهن على هذه الزورة المباركة
مالم أر مثله عند غيرهن من الشرقيات ، حتى شافني الحليج مع نخبة منهن
لولا اغتراب على اغتراب ، ومبارحة الدار دون أطفالي الصغار
وما كان أجمل عندي ان اسرح الطرف في تلك
الجلابيب البيض من الحرير ، التي كان تتلفف بها النسوة المصريات
الحاجات من صبايا ومسنات ، متعلمات وغير متعلمات ، إنهن ليذهبن
إلى الحليج بهذا الرداء الناصع الأبيض ويعدن من دارة الوحي الى مصر
يبقين بهذه الثياب عاماً او بعض عام ، يخفقن بها معصوبات الرؤوس
بالتحار الابيض ، وما تقع العين على واحدة منهن وهي بين ذوات
الملاءات السود حتى تطيف بها وتهف وحينئذ تردد الأفواه : هذه
حججيه ... ربنا مايجرمناش ...

ولعل أسعد مصرية في إيماننا من الحاجات المثقفات تلك السيدة
الجليلة التي نماها الأدب والتقوى ، فأنجبت خير البنين والبنات (١)
وأسهمت في بناء النهضة النسوية على ضفاف النيل في مجلتها التي كانت
باكورة الآثار الفكرية في حداثة النهضة المصرية
تلك هي الحاجة الادبية السيدة « لبيبة أحمد » التي آثرت جوار
الكعبة ودار الوحي ، فأقامت هنالك منذ ربع قرن ولا تزال إلى

[١] منهم صديقتي الفنية العظيمة السيدة زينب عبده عميدة المعهد العالي للفنون الجميلة
وزوجة الفني العظيم الاستاذ أحمد أحمد يوسف عميد الفنون التطبيقية بالقاهرة

اليوم مجاورة مؤفرة ، يعاودها الحنين الى مصر حيناً بعد حين فتطير
اليها على شوق ووفاء ، ثم ترتد الى اكناف البيت العتيق
وفي غير مصر من بلاد العرب لايشوق الحج الصبايا والفتيات ،
من مثقفات وغنيات ، توهماً منهن بأن الحج يخلع عليهن الوقار وطول
الأعمار ، فلا يقبلن عليه إلا بعد أن ينضحن من مباحج الحياة ويجعلن
هذا الحج خاتمة المطاف

فيامهبط الوحي ويادارة النبوة والهجرة ، إليك تهفو روحي هفهافة
كالأجنحة ، خالصة صافية كماء النبع ، مبتهلة إلى الله
ان اراني في يوم قريب ، طوافه في البيت الحرام حوامة
على ذلك الصعيد الذي درجت في حماه خديجة الكبرى وفاطمة
الزهراء وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت ابى بكر وسكينة بنت
الحسين وغيرهن من القانتات الطيبات

وياحبيج هذا العام من متوامي بقاع الاسلام ، يان طوبتم
المراحل في غمرة هذه الحرب الضروس إلى بيت الله ومثوى الرسول
سلو ربكم ان يرفع غضبه عن بني الانسان ويحقن الدماء التي يسفكها
اعداء السلام والوئام ، ليقيموا على جماجم الضحايا والأبرياء ، مجدداً
لجشعهم وطغيانهم ، مصبوغاً بالدماء

أدب النسوة

كما أعطي الرجل نعمة الفكر كذلك أعطيت المرأة ، ولئن كان «ديكارت» يقول : انا افكر إذن فأنا موجود ، فمن حق النسوة في هذا الوجود ان يقبلن هذا المقال ، حين يفكرن ، وحين يردن ان يعربن عن تفكيرهن ، وان يبتغين الوسيلة إلى ذلك

واقدا حسنت المرأة بما يحيط بها من دواعي التكسير وإثارة الشعور ، منذ عرفت السبيل إلى التعبير عنها ، حتى اخذت تلوح في آفاق الدنيا تبشير ادبها ، على انها وهي في غثاثة الفكر وضآلة المعرفة في بداوة الامم وجهالتها ، كانت وهي تهزّ المهد تنشد الاهازيج وتردد لها فيها الحنان على الوليد والحنين اليه ، وفيها الدعاء له والامل المعقود عليه . وكانت العجائز في هذه الفترات الساذجات يتجاذبن على هامش الاحداث والانباء جوامع الكلم وامثالا يرتجلها ذكأوهن ارتجالا ، او يروينها ويتبادلنها ، فيها الموعظة البالغة والعبرة القاسية والشهامة الهازئة . ولما تقلبت الامم في ادوار الحرية والمعرفة واطوار الحضارة والثقافة ، كان ادب النساء في تطور وتجدد ، فجارين الرجال في التعبير عن مشاعرهن وتصوير خواطرهن . أفما كانت سافو شاعرة الاغريق ضريعة لشعراء عصرها ، ان لم تكن ثالثة ثلاثة بين شعراء الغناء عند اليونان ؟ ولولا نزق لعب بعقلها لما ارتقت على البحر من شاطئ ، ولكانت وحدها درة الادب النسائي القديم .

وتعاقبت على ادب النساء عصور متفاوتة الالوان والوجهات حتى اوفت امم الغرب على ذروة البعث والمدنية ، وانبسطت لها آفاق

العلوم والفنون ، فكانت نساء الفرنسيين اكثر نساء الغرب استمتاعاً بمباحج الحياة وثمرات القريحة والروح ، فاستوفت طائفة منهن حظوظهن من الذوق ، والظرف ، والادب ، وأقمن في بيوتهن الرفيعة مثابة لأهل الفكر وملتقى لرجال السياسة والكياسة فكُن ينشرن آثارهن في الصحف ، ويقرأن ما يكتبن على من يختلف الى مجالسهن الزاهرة حتى كثر عدد الملمات بالادب ، والمنتديات الى اهله اما اللواتي كان لهن من الفطرة الملهمة ، والثقافة المكتسبة ما جعل منهن كاتبات ومفكرات فهن قلائل ، يذكرهن تاريخ النهضة الاوربية الحديثة بزهو واعجاب ، وفي حقبة ادبهن النضير لمعت السيدة دي سفينية المشهورة بادب الرسائل ، والتي كان بهواها موثلاً لاهل الفنون ، ونشأت السيدة دوستال فألفت كتابها « كورين » ونبغت جورج صاند فأنشأت الكتب الطريفة ، منها أثرها المسمى « هو وهي » كشفت به عن زهرات ادب حي لا تجنيه الا المرأة لانها اعربت فيه عن نفسها ، وعما وقع في نطاق حدسها وسباق حسها . . .

ولسوف يبقى على الزمان ذكرها مقروناً بالمباسم النسائية الصحيحة ولقد استولت بعدها على أمد الادب النسوي الشاعرة الكونتيس دونايل التي كانت تمثل الالهام بشعرها ، وترسل قصيدها كما ترسل العنادل اغاريدها ، وما تزال السيدة كولينت اديبة العهد الفرنسي الحديث .

وفي عرب الجاهلية والاسلام بدرت بوادر ادب نسائي جميل ، اتخذت ملامحه وبديته تلح في الظهور في غير تكلف ولا غرور ،

حتى انبثق ادب مرموق ، ولكنه لم يكن متسع الحدود مترامي
 الاطراف ، او على شاكلة الادب الذي ابتدعته نساء الغرب ايام الترف
 والتجديد ، والاستقرار . وكيف اتفق الامر فأدب نساء العرب
 اكثر ما يتجلى في الشعر الذي كن يطارحنه الشعراء والنقاد في
 الاغاني والاسمار ، والذي كان يتفجر من قلوبهن المحترقة في المآسي
 والراء ، ولا أدل على ازدهاره من نقداً بنت الحسين في عز
 الحضارة الاموية ، وولادة بنت المستكفي في عهود الاندلس المشرقة
 اما اديبن العربي الحديث ، الموسوم بخصائص الانوثة وعبقريتها
 النضاح بثقافته وسماته ، فقد ظهر نباته مع باحثة البادية على ضفاف
 النيل ، وأمرع وأزهر ، في ادب الآنسة مي يرحمها الله ، بيدانه
 لا ينبغي ان نقارن ادب هانين النابغتين بادب من سبقهن من كاتبات
 العرب في العصر الغابر على قربه منها . فوردة اليازجي اللبنانية ،
 وزينب فواز العاملة ، وعائشة تيمور المصرية ، كان اديبن في قيود
 الزمان ، وحدود المكان ، وتكاد تنحصر آثارهن الثرية ، والشعرية
 في الرثاء ، والاماديج والمواعظ الاخلاقية . ولكن ليت شعري
 ماهو الادب النسائي المنشود ؟ هل هو ان تكون المرأة مثقفة كالرجل
 المثقف ؟ فاذا خلقت واعية ذكية او تمرست بالصحافة كانت ذات
 ادب نسائي ؟ او ان كثرة المتعلمات والمعلمات ، والمثقفات ، والمحدثات
 تكون الادب الذي اريد ؟ كلا ، ليس هذا ما ينبغي . . وانما ادب
 النساء هو في تلك المقولات الشعرية ، والرسالات الثورية ، والالواح
 الفنية ، التي تعبر فيها المرأة الكاتبة عن دخائل نفسها وحقاياها

في البيئات النسائية ، التي لا يتسنى للكاتبين ان يعيدشوا فيها ، او يشعروا بها ويعاينوها . هو في المواهب النسوية المصقولة والأفكار المتحررة من أصفاد أحكمات وثاقها التقاليد ، ففكت بقوة النفوس العلوية الطبية لتطل على مجتمع النساء المحروم ، فتمده بالضياء والرجاء ، وتوقظ فيه الارواح النائمة ، او الخانعة المستساة ، إلى ظلمات اليأس والجهل والشقاء . هو في تصوير الحياة النسائية المهمة والعادات المحجوبة عن الرجال .

ففي كانب منها بلغ رعيه واستفاض وحيه يستطيع ان يحيط بامرار الذماء وهي عندهن في آبار عميقة وتحت حجب صفيقة ؟ فكثير من احاديثهن لا يفيضن به الى الرجال ولا يقدر ان يستله منهن الا الكاتبة .

فسر السحر والتعاويد وضروب الكيد بينهن والحسد وستر المنكر وتزيير الجمال وتصور الأمومة ، كل هذا في عالم النساء ، لا يفيض للكاتب ان يحول فيه . اما الكاتبة فلها فيه جولات مجليات ، فلو سئل اديب منا ان يكشف الغطاء عن صور من اعراسنا الغابرة والمعاصرة أكان يبدع في صنعه كما تبدع الادبية ؟ فقد تخطئه الطرائق والوسيلة ولا يتيسر له التدسس الى بواطن النساء . ولو تصدى قاص من هذه الديار فأنشأ قصة سماها « حمام النساء » أكان يستطيع ان يصف الحمامات الشامية ذوات المقاصير ، والأجران المقسمة الى « جواني » « بورتاني » والمصاطب التي تصطف عليها النساء ومعهن الصرر المزركشة ، وبأرجلهن القباقيب العالية او الواطية ، كل منهن تمسك بولدها او تنادي جاريتها وقربتها ، وثمة معاملة الحمام على اريكة ناشزة ، تقيس الداخلات بالنظر ، وتستقبلهن بالترحاب ، وتجيي الاجور من الحارجات

وتشيعن بالتحيات . لاجرم ان هذا القصي الذي يتوسل بادبه الى تصوير ناحية من حياة المرأة ظاهرة او باطنة ، انما يستوحيا ويستمد لفته افانين التعبير عنها ، من ذكريات له بعيدة ، حين كانت امه تأخذه الى الحمام معها بعد الظهيرة ، او انه يتصور مجالي الحمام مستعينا بنفاذ بصيرته وامتداد خياله على اجتلاء ناحية لا يعرفها ، والخيال وحده في الادب لا يكفي لانه يشرذ احياناً ويجمع ، فيجني على الحقيقة وعلى العيان ، ويشذ عن دنيا الواقع وشروط الفن . على انه لم يخل ادب كاتب شرقي او غربي من ذكر النساء ، ومنذا الاديب الذي خلا دبه من تشريح المرأة او تجريحها ، او التلميح إليها ؟ وكل ادب تجافي عن مناهلها هو ادب جاف بغيض ، ولو عرضنا على النقد والفكر ماجرت به اقلام الادباء ، بما كان على الادبيات ان يتناولنه باقلامهن ، لرأينا فيهم من حاد عن حق ، وجار على قصد ، وسخر منهن كبداً وحقداً . غير ان بيئات النساء عندنا على الرغم من انسلال الحضارة اليها ما تزال مكتمة الانفاس ، مهيضة الجناح لا تستطيع الكتابة فيها - اذا وجدت - ان تعلن مشاعرهما الصادقة على ضوء الحرية التي يكتب الرجال في امنها ونعمتها ، ولذلك كان الكاتبون في ادبهن يخوضون ، وبساحته يسرحون ويمرحون ، وهذا ما اخذه منذ سنين على المعلم الاكبر طه حسين تلميذه الالمعي زكي مبارك فقد عاب هذا الناقد على عميد الأدب العربي أن يكتب قصتيه الحديثتين « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » على لسان امرأتين ، وكان على طه حسين حسبا زعم زكي مبارك ان يكتب عن الرجال

لا عن النساء، وقد فاته ان الادبية العربية الحديثة مها بلغت بلاغتها ومها واتها الفن والبيان، فلن تفوق طه حسين في قوة الاحياء والابداع، فهو جدير حقاً بأن يكتب باسمها، وقدير على ان يصور نفسها بما تحجم هي عنه، او بما لا يتاح لها التفوق فيه، والمرأة العربية قريرة العين طيبة النفس على كثر الزمان، بهذا الادب الناضر الساحر الذي ينطق بلسانها فيه صاحب « الايام »

من هذا الباب استطاع ناقد ان يدخل على ادبي حين احرزت جائزة القصة في المسابقة الاولى التي اقامتها منذ سنوات جريدة « المكشوف البيروتية »، وكان موضوع قصتي عن رجلين كاد يضل احدهما فأرشده الثاني، فأبى على الناقد ان اخوض ناحية خافية في ادب الرجل ولم ير رأيه نقادة آخر اذ قال لي مشجعاً ومؤيداً :-
انت اعلم بنا من علمنا بانفسنا ...

ثم اعرضت بعدئذ عن اشباه ذلك الموضوع، وحسبت قلبي عما يبدع فيه الكتاب، فمددت عيني الى ما يعج في حياتنا النسائية الراهنة من هموم وعيوب، مرسلّة ادبي على سجيته في كتابة الاقاصيص التي تختص بادب المرأة، وتشتمل على ادق طواياها.

ولاريب في ان ندرة الادب النسوي الصرف مردها عندنا الى قلة الكتاتيب الموهوبات، فلو ان بيثاننا المتنورة منبسطة الآفاق، وضاحة المعالم، قوية الاقلام، لقلنا بان يختص كل من الجنسين في أدبه وان يقتصر عليه وحده. اما وادب المرأة المعاصر ما يزال مضطرب الملامح، قليل المحصول والمنتوج، ضئيل الالوان والالحن، فلا تتريب على ادباء الرجال اذا تناولوا بعضه

بالوصف والنقد والتصوير ، فاذا قوي هذا الادب بطول المراثية والمراس ، وخلينا بينه وبين حرية مهذبة الاعطاف ، مأمونة العاقبة ، وضحت فيه امور كانت خافية ، وصقلت به اذواق كانت نابية ، وتسامت من اجله نفوس نحو المثل العليا . واحسب ان الدنيا متى هدأت واستقرت ، ستنتهي المرأة في بلاد العرب الى ادب خاص جزيل يستقل بفنه وحصاده ، ويتزيا بازيائه الصحيحة ، فيزدهر بجذته وانوثته ويسهم في آداب الرجال بتبليغ رسالة الخير والجمال .

ومهما تجنى عليه المكابرون بعدئذ فلا بد من رجعة لهم الى الحق ، فيقولوا اذا قرأوه ما قال الفرزدق حين سمع شعر الخزومي عمر بن ابي ربيعة :
« هذا والله الذي كنا ندور عليه فأخطأناه واصابته هذه المرأة ... »

سحر المرأة

السحر سلاح انفذ من السهام وامضى من الحسام ، انه اختراع الله ، أبدعه من روحه ونفخه في المرأة الاولى ، فتوارثته عنها بناتها .

رف على العيون فكان محبة وهياماً ، وطوف في القلوب فخفت حناناً ووثاماً . طلعت ازاهيره في شقرة الشعر وسواده وسمرة الوجوه وبياضها ، وتدلث ثمراته في مجاني النساء فكانت وداعة الدمثة وعذوبة الانوثة ، لم يسكبه الله على كل امرأة ولا آتاه بنات حواء من غير حساب ، فمن مسح به الباري على وجهها فهي المحظوظة السعيدة والمروقة المحسودة ، انه لا يرى بالعينين ولا يمسك باليدين ، هو كالكهرباء يرى أثرها ولا يعرف سرها . ضل من طلبه في اتساع العيون الفواتر وصفحات الحدود السواجي وعلى المباسم الجاذبة ، وجار على الصواب من حكم فيه بالمقياس أو أقره بالبرهان . انه خفي لا تدركه الا الارواح الشفافة والانفس الحساسة . رب راء لامرأة يعرفها او يصادفها ، وكأنها قد صبت في القالب او نحتت مثل دمية او تمثال ، لكن تنقصها الروح والحياة ، ولو جالت في عروقها الدماء لما سكبت عليها من السحر قطرة ، ولقد يكون السحر ساكناً كما نراه في الصورة الفاتنة . وكأي من صورة يخيل اليك ان السحر يتفرق في خطوطها وملامحها ، فلما نطقت ونحركات ، عربت من الصناعة ، فاذا هي بموهة مزورة كالدينار الزائف . ولقد يكمن هذا السحر في المرأة كمونه بين الزند والحجر ، فلا يتراءى حتى يقده قاذح

كذلك شأن المرأة من الغيد الملاح لا من الجميلات الحسن ،
تقع العيون عليها وهي صامته ساكنة ، فتحسبها جامدة هاملة مالها
في السحر من نصيب ، فاذا هي تحور وتمور ، وتتدفق الحياة في قسماتها
ونظراتها بالسحر المبين ، وهذا ما يسميه الناس جاذبا .

هذا الجاذب الخالب هو الذي يلعب بالالباب ويعبث بالقلوب ،
واحسبه كقاعدة في العلوم الطبيعية ، عندما يجري تيار الكهرباء ،
في الفولاذ يكون المغناطيس ، هكذا يكون الجذب في المlichkeiten
القاتلات حين يدب فيهن تيار الحياة ، وانه كشأن الغناء والرنم حين
ترجعه المغنيات في اصواتهن الندية الرخيمة ، فيمكن من المثيرات
الساحرات .

ما احبلى السحر حين تصرفه صاحباته في سبيل الحق والخير والجمال
فيكن فيه كالملائكة ! وما اقبحه عندما يتوسلن به الى الشر والشقاء
والاذى فيكن فيه كالشياطين ! ويل لكل ساحرة جائرة ، ان لصنعها
الخبث وقعا اشد من الوقعة وافدح اصابة من المصيبة ، ان السحر
الرهيب يحرف كريح السموم ، هو مس الافاعي وطعم العسل
المسموم . بكلمات من هذا السحر الاخاذ قالت حواء لادم : كل
من هذه الثمرة ... وكانت محرمة عليها فهويا الى الارض ، وافسدا
الخلود الاول على بني الانسان فارتموا فوق التراب مكبين على الوجوه
يسعى ناس منهم للخلود الآخر في جنات النعيم ، وناس يسحبون سحبا
لتكوى جباههم على نار الجحيم

كذلك فعلت بسماة سحر من حواء في الاغراء ، فجزّت على

الدنيا البلاء والشقاء . . وها هنا تفتتح امامى ابواب التاريخ فألج
في بيوته واجول في حجراته ، فأرى لسحر الذناء سجلاً منشوراً
وكان مطوياً دفيناً ، واذا بالاحداث الجسام تخرج من هذه البيوت
وتطل من تلك الاسفار ، فتتردي الاعمار وتكشف الستار وتهب بين
عيني جائحات قائمات ، فأرى فيها كليوباترا قد اهلكت انطونيو
بهذا السحر العميق ، وجوديت تتسلل بهذا السلاح نحو هولوفيرن
فتدخل عليه الحيمة ، وهو في حصار بيت المقدس ، فتغربه ثم بالمدينة
تغربه ، وبومبادور قد اخذت المطرقة واشعلت الكبر فهي تصنع
المقصلة قبل ان يخترعها السفاح « غيوتين » وماري انطوانيت تأخذ
السفار فتشجدها لتمضي في جذ الرؤوس وضرب الاعناق ، ولويس
السادس عشر يتسم ضاحكاً امام تالألو ناظرها وتثني قدها المياد
بالسحر النفاذ ، ثم ارنو الى صحائفنا واجادنا فاراهنا حافلة بسحر
بنات حواء ، وتخطر في خيالي ملاحه زبيدة وحلاوتها فأتمثلها بارعة
متفنتة ، نفاتة سحر انوثتها في وجه الرشيد ، ليجعل الخلافة بعده لابنها
الامين ، واذا بجيش المأمون يدك بالفارسيين بعد حين صروح العباسيين ،
ويسفك الاخ دم اخيه ، فتروعي هذه الرؤى الجمراء واستعبد بالله
من كبد الساحرات .

ولقد تفقد المرأة سحر الخالق فتعتمد الى سحر المخلوق ، تغلو في
الزينة والتبرج ، اهلها تلك السلاح الذي به تلهو وتعبت ، وتحكم وتسيطر
فلا يجديها الحسن المجلوب نفعا ، أما قال لها الشاعر : ليس التكحل
في العينين كالكلحل ؟ ...

وثة سحر آخر يعلو في جوه الدخان ويعبق البخور ، وقد جلس في الزاوية رجل قد يكون عبداً زنجياً أو زميتاً رثياً ، وربما بسط على طرف الطريق منديلاً عليه الرمل الأحمر ، فرسم بأصابه فوق النجوم المسدسة ، وأخذ من جعبته قلماً من قصب ، فغمسه بالزعفران وجعل يكتب أسماء حنطوئيل وجرموئيل وأنطش وأرقش ... ثم صور شاباً وحشاها حروفاً ، وجعلها ورقة مستطيلة كالزئار ، فطواها واحكم بقماش من الشمع غطاها ، ثم أداها إلى المهيبة أو السخيفة مشترية السحر بثمن غير بخس من وفرها أو تقنيرها ، وقد تكون أخذته من الزوج غصبا وحرمة العيال ، فتعود إلى بيتها تحمل التعاويذ والتهاويل ، أو تحل الورق المكتوب في الماء المشروب ، وبعض السحر يقضي على شاريته بأن تحرق على النار العود والحصلبان ، لترد الزوج البعيد أو الولد الشريد ، وقد تفعل ذلك لطلاق الضرة أو الكنة ، أو لصفاء العشرة والجيوة ، إنه سحر عتيق في الدهر ، عرفته بنات جنسي من عهود بابل ، يوم كان فيها هاروت وماروت ، وعابته في قصر فرعون حين هم الكهان بموسى عليه السلام ، عاش مع المهرجات ، فهو إلى اليوم عند طائفة منهن يسمى « الزار » (١) وله لديهن مواقيت وأخطار ، تجري بها الأخبار ، وتعلق به فريق من نساء الطبقة الدنيا حتى صار فيهن المنجمات والناظرات في الفلك ، وفي المندل ، والحاسبات القارئات في الكف وفي فنجان القهوة ، والساكبات الرصاص « والمحليات » برش الماء على مواضع الداء ، وفيهن

« ١ » الزار قصة في كتابي « بين النيل والنخيل »

التي تزعم أن الجني يتلبس إياها فينتبج منها الودجان، وتحمر العينان
ويرغو الزبد على الشدقين، وإذا بصوتها الناعم يخشوشن ويتهدج وتلفظ
الكلام بصوت أجش، كأنه مندفق من افواه الرجال، ثم تخاطب
الملك الأحمر أو الأصفر، وتتقبل النذور والأجور بالخداع والتدليس

• • •

هذا سحر بنات حواء : روح وريحان وبهجة وجمال ، أو فتون
وجهه ورشاقة قد ، وحلاوة لسان ولباقة ذوق ، وصفاء شعور وهو
السحر الحلال، أو مجنور وقائم ونفثات وطلاسم ، للكيد والحسد، وهو
السحر الحرام، سحر مطبوع وسحر مصنوع ، هما قوام عرش المرأة
في مملكة الحب والجمال ...

قفل بغير مفتاح

منذ القديم والمرأة في الشرق والغرب متهمة بإشاعة الأخبار ، موصومة بفضح الأسرار ، وهذه التهمة العاشمة قد وصمها بها رجل ... هذا الانسان القوي العاني ، الذي ما يزال يتجنى على النساء ليثأر منهن وينال ، فصرن لدى سواد الرجال بعد تلك الوصمة لا يصلحن للسر كائنات ، ولا للغيب حافظات ، ولو تتبعنا صحف التاريخ لازدحمت أمامنا الأحداث الجسام ، وأطلت منها الاسباب والبغيات ، فرأينا فيها المرأة أكرم للسر ، وأعلم بمواضعه وأقدر على إخفائه

قال الرجال الذين كتبوا عن « مانا هاري » إنها مثلت بين أيدي القضاة العسكريين بفرنسه إبان الحرب العالمية الاولى - بنفس صامدة كأنها قلعة الجبل ، فلم يستطع واحد من دهاة التحقيق يومذاك أن يستل منها سراً من الاسرار التي دفنت معها ، ولو هي باحت بمكنون الضمير ، لو فرت على الاعداء كثيراً من مصايد الدمار ، ولأغنتهم عن حصون أعدوها لئسك الدماء

وفي الحرب العالمية الثانية نجحت نسوة وفتيات ، غريبات وشرقيات ، كانت كل واحدة منهن ابرع من « مانا هاري » في التسلل إلى مطاوي الاخبار والاسرار ، ورب كلمة تحصل عليها من جندي سكير أو ضابط متدله أو قائد هيان ، فتغير وجه المعارك الحربية ، ولولا حرص الدول التي كسبت الحرب على إبقاء تلك الدقائق في قيودها الابدية ، لذاع في أيامنا صيت طائفة من النساء بمن غيبن الكتمان أو طواهن الزمان

وكانت المرأة من قبل هؤلاء ذات حفاظ على السر في الملمات والخطوب ، ألم تحفظ «جوديت» سر قومها وتقتل به «هولو فيون» في ليلة من ليالي الحصار في بيت المقدس ؟ وما بالي أذهب بعيداً ، ولدينا في تاريخ المآثر النسوية صفحة غراء لاسماء بنت أبي بكر ، فقد أعجل الرسول عليه السلام وصاحبه الصديق عن ابتغاء الزاد في طريقهما مهاجرين الى يثرب ، فسارعا الى غار في جبل ثور إخفاء لأمهرهما ، وتضليلاً لمن يقفي على أثرهما ، لكي يصدما عن الهجرة الى المدينة المنورة ، فكانت أسماء بنت أبي بكر توافيها تحت جنج الليل بالزاد والماء ، وبما استشفست واستطلعت من أحاديث الاعداء المتربصين ، ونيات المتآمرين على رسول الله وصديقه الصديق ولقد أحاط بها فريق من هؤلاء ذات يوم إذ شبه عليهم أمرها ، فسألوها عن أبيها ، وألحوا بالاستفهام والسؤال ، فتجاهلت خبره وكنمت سره ، ثم عنفوها مهددين متوعدين ، وهي معتصمة بالكتمان حتى لطمها «ابو جهل» لطمه أليمة طار منها قرطها فما دمعت ولا فزعت ، وإنما استمدت من الايمان صبراً على هذا الهوان ، وكانت حاملاً متمماً ، فصامدت صمد الجبابرة المذاويد ، في وجوه المعتدين والمترصدين حفاظاً على سر محمد ...

حين تسأل القلوب أين مكان الاسرار وآبار الكتمان ، تردد الجواب أفئدة النساء المؤمنات الأمينات : هاهنا في صدورنا الحصينة الرصينة ...

ففي نوازع الاهواء ، كم ذا لقيت الشقاء قلوب بنات حواء ، إذ آثرن

الكتمان ولو في غير أمان ، ولولا العواذل والكاشحون لاستسرت
في ثنايا هاتيك الخوافق اخبار وسير ، وحفظت عهد وذمم ، ولو
أحصينا في الناس من أخلف الوعود ونقض العهود وفضح السرائر
ومستور الضمائر ، لوجدنا الرجال اكثر عدداً وأبعد اشواطاً من النساء
في هذا المضمار ، على ان المرأة لم تسلم في اي عصر من العصور من
رجال تهكموا بها واصطنعوها للهمز واللمز في كل نكتة ونهزة ،
وقد زعموا ان ألد الاشياء عند النساء كشف الحفايا ثم اذاعة ما فيها
من اسرار واخبار ، وتريدوا في تهكمهم هذا فقالوا ان المرأة
لاتكتم امراً ولا تحفظ سراً الا اذا كان لهذا السر مساس بعمرها ...
وقد كان لافونتين صاحب الحكايات الحيوانية ممن عيروا المرأة بفضح
الاسرار ، فركب في شعره أسطورة عنها ، تصور فيها امرأة فضحت
زوجها حين زعم بأنه ولد بيضة ، فقد نسج خياله سيرة رجل كان يباهي
بمفاظ زوجته على الاسرار فقال له صاحبه : ان شئت لها ابتلاء وامتحانا
فملك من يبتليها بهذا السر : أظهر الليلة ماتظهره المرأة وقد جاءها
الخصاض ثم قل لزوجتك بعد قليل لقد ولدت بيضة ... واطلب منها
ان تكتم هذه الحادثة وانظر بعد فعلتها ، فقام الرجل بما وصى به
صديقه ، اما المرأة فقد ضاق صدرها بهذا الخبر فلم تستطع ان تطويه
في اعماقها ، بل حملته الى الجيران ، وسرعان ما شاع في كل مكان ،
وهكذا بلغ الرجل في المساء انه ولد مائة بيضة .. وهذه الأسطورة
التي وضعها لافونتين شاء فيها التهكم بالمرأة والسخرية منها ، وهو
الساطي بفنه القصصي على أدبنا ابن المقفع الذي كان يغلو في نصح

الرجل بكتان الاسرار حتى أدار حواراً بين اربعة ملوك، في موضوع السر فقال ملك الصين : - أنا على ما لم أقل أقدر .ني على رد ماقلت . وقال ملك الهند : - عجبت لمن يتكلم بالكلمة ، فان كانت له لم تنفعه ، وان كانت عليه أوبقته .

وقال ملك فارس : - انا اذا تكلمت بالكلمة ملكتي، واذا لم اتكلم بها ملكتها .

وقال ملك الروم : - مائدت على ما لم اتكلم به قط ، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً .

لقد أجرى ابن المقفع على لسان ام الاسد مثل هذه المواءظ بقولها : انني لم اجعل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار في اذاعته الاسرار ... فكان ذكر الرجل في هذا التحذير والموعظة مدعاة لانتقامه هو - كما تنتهم المرأة - بكشف الستار عن خطير الاسرار . فكم سرافض به الرجل وكانت المرأة قد غيبته في مطاوي الخفاء ، ابقاء على سمعة أو سعادة ! أليس في الرجال اصحاب سفارة ووزارة ، او وظيفة وحرقة ، قد حلفوهم الايمان في سبيل الكتان، وما لبثوا ان كشفوا الاسرار الخطيرة عن خبايا صدورهم واغوار ضمائرهم طوعاً او كرهاً، وكانوا لغيرهم سبب شقاء وعذاب .

ولقد بلا الكبراء والرؤساء في ايامنا وفي ماغبر من الزمان، مزاياء بعض النساء في الحفاظ والكتان، فاتخذوا منهن دون الرجال عيوناً

وآذانا ، وجعلوا من بعضهن السر أمينات ، وللمهات حصينات ، فأفحموا
المندرين وأسكتوا المستهزئين ، ولو لم يستيقنوا من امانة المرأة
وكفايتها ، لما وكلوا اليها في أيام الحروب اخضر الانبياء والرسوم
تؤديها كمفريت من الجن ، ولكم دهمتها من جرائها النكبات
والاعوال فتقبلتها بالصبر والرضى والحصافة ، وكم تفاذفتها ايدي
النوى وانتزعتها من بين اهلها ، وترامت بها المفازات والأمصار
والأفلاك والبحار ، مستعينة على قضاء الحاجات بالكتمان ، وكأن
لسان حالها ينشد مع المتنبي :

وللسر عندي موضع لا يناله نديم ولا يفضي اليه شراب
فذكري في هذا البيت رجالا لا يأتي عليهم العد ، كانت أسرار الناس
واخبارهم ساكنة كامنة في أعماق نفوسهم ، فلما رشقوا كؤوس الحمرة
ودارت بهم نشوة الصبابة وعبث الدعابة ، فضحوا الاسرار المستورة
وباحوا بها رخيصة هينة ، وكانوا هم الظالمين .

لقد افتروا على المرأة فزعموا انها لا تصلح للسر موضعاً ، ولا للخبر
كائناً ، ولست بزاعمة مثلهم او مدعية في مقالي هذا ان كل النساء
سواء ، ففihen الطياشة المهادرة التي لا تطيق السكوت عن كل ما يخطر
في بالها او يضطرب في بيتها او يقع في سمعها فكيف بأخبار غيرها ؟
كما ان في الرجال النفاقين الذين لا يكتتمون مرة بل يباهون بكل
صغيرة وكبيرة ، لا تطمئن جنوبهم ولا تقر لهم قرارة على سر حتى
يبيعوه طائعين راضين ، فاذا هم أخف احلاماً من العاصير ، ومن
عجب ان يرى الرجل المرأة مبيحة الاخبار ، هاتكة الاستار ، وينسى ان

الله اختصها بسحر فيه مفاتيح الاسرار - وهو الذي القى سلاحه منذ
الازل دون سرها الموصد وبابه المرصود ، حتى قال اساطين الحكمة
من الرجال هذا القول المأثور «المرأة سر مغلق» وبحسبي ان اجيب
عن الكتامة الرزان من بنات جنسي ، بقول الشاعر :

والسر عندي في بيت له علقُ

قد ضاع مفتاحه والقفل موجود

أهياء البنات

لحس الله زماناً كانوا يقولون فيه : وأد البنات من المكرمات ،
لكأنني أنخيل أيامه البائدة فأرى على جهامتها في جاهلية جهلاء ، امرأة
فاجأها الخاض تحت خباء بعيد في ليلة ذات هريو ، فلما وضعت حملها
اشتد بكائها ، لامن مواجع الطلق الأليم ، وإنما من هول الواد الفظيع
إذ كان حملها أنثى وليس الذكر كالأنثى عندهم في ذلك الحين ، فأخذتها
بين يديها بلهفة وخشية ، وضمتها إلى صدرها بحسرة وقالت لها : أبدو
الدهر ، لن توءدي أو أقتل معك يابنية ...

وأقبلت العشيّة على والدّة مطوية على كبد حري ، وقلب تنفطر
له السماء ، ووالد مسود الوجه كظيم ، بين يديه وليدة ساخنة اللحم
باكية ، وقد توارى بالظلام وفزع إلى حفرة قذف بفلذة من كبده
في جوفها ، ودسها في ترابها ، ثم نفّس يديه منها ، ونهض مستريحاً من
تعيير مر ، ووهم فادح ، وما هو إلا في الحيال المختل ، والعقل المدخول
والقلب الغليظ . ولم يكن هذا الواد الفظيع مقصوداً على طوائف
من الناس متقاعسة في حياتها ، مسفة في عقولها وميولها ، بل كانت
شائعاً عند قدماء اليونان ، إذ كانت تقضي عندهم بعض التقاليد الدينية
أن يقدموا بنتاً من أجمل بناتهم قرباناً للآلهة ، في إحدى حفولهم الرائعة ،
ومثلهم الفراعنة الذين كانوا يقدمون عروساً من أبهى فتياتهم ليلقوها
إلى النيل يوم فيضانه ، وقد ابتلى فريق من العرب في جاهليتهم
السحيقة بكره البنات إذ كانوا يروهن وبالأعلى عليهم لفرط ما جسم لهم
الوهم من خطر وجودهن ، ووصمة العار إذا فسدت حياتهن وتداولتهن

أحداث الحرب والأيام من سباء وبتم وحرمان وهوان ، ولقد بلغ من زرايتهم بالاناث أن حرموا عليهن الميراث قبل الاسلام ، فكأنوا يقولون : لا يرثنا إلا من يحمي الحمى ويزود عن قومه بحد السيف ، على أن السائد لدى المتبعين لأخبار العرب وأشعار : أن جناية الوأد لم تكن معروفة إلا في قبائل قلائل من كندة وتميم وربيعة ، وكان الحافظ لاقتواف هذا المنكر سفاهة الرأي فيهم وفساد التخيل وإيذاء الضيم ، ولا جرم في أن جريمة الوأد هذه بصرف النظر عن فظاعتها شيئاً غير يسير من الحب والاشفاق ، ثم أليس على قدر الحب تكون التضحية ؟ ولقد كان الوأد إما فقيراً حقيراً ، غليظ القلب يقتل أولاده سفهاً بغير علم وخشية وإملاق ، أو ميسوراً ولكنه فقير العقل يخشى العار والذل وهماً إلى حد الجنون ، إذ ان غلوه في الحرص على كرامة بنته كان يصورها له بأشنع الصور وإليك أبياتاً تصور اعرابياً يتهاافت حناناً واشفاقاً على بنته ، ويتمنى موتها خوفاً من تبذل يزري بها وهوانٍ يصير إليه بعده :

لولا أمية لم أجزع من العدم
ولم أجب في الليالي حندس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

يهوى بقائي وأهوى موتها شفقاً
والموت أكرم نزال على الحرم

أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها
فيكشف الستور عن لحم علي وضم

إذا تذكرت بنتي حين تندبني
فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدم

ومها يكن من هذا القول ، فإن جريمة الوأد في تلك العهود المظلمة من المظالم والجرائم التي ما اجتزمها غير الحمقى والغاشمين ، وقد يكون أول من سنها ودعا إليها نافعاً من المرأة أو حاقداً عليها ، ولا ريب في أن أثر الوأد في قلوب الأمهات ، كان أشد من طعن الحراب ووخز السنان ، وما أشد مانقم عقلاء العرب وسراهم من هذه المظلمة الغاشمة في الضحايا المؤؤودات ، فكانوا يفتدون الولائد بالماء ويستوهبون حياتهن بالمعروف والاحسان ، ومن أشهر المفتدين صعصة التميمي ، جد الفرزدق شاعر بني أمية القائل :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوء
فلما اشرفت دنيا العرب بنور الاسلام ، عد الوأد من الكبائر والمناكر ، وأشار القرآن الكريم إلى المؤؤودة برحمة ونصفه بقوله :
« وإذا المؤؤودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ؟ فبرأ الدين نفوس المهتدين من مآثم الجاهلية وكل ظن مرجم ، وأنزل الله آياته البينات تسخطاً على الوائدین وتأنيباً لمن يكره البنات ، ولكن قوماً تعودوا هذا الكره فما نزعوه من صدورهم الموسوسة ، إذ سرى في أعراقهم وجال في أجيالهم ، فدرجوا على مجافة الاناث ، فكان إذا بشر أحدهم بالانثى تشاءم ونقم ، أو توارى من القوم من سوء ما بشر به ، وكثيراً ما أدت

ولادة البنت عندهم إلى شجار ونقار، بل إلى هجران وطلاق، وقد
اتفق أن أعرابية كانت مثناة، فلما ولدت بنتاً هجرها زوجها، ولكنه
جاورها فكانت تنافي الوليدة بهذه الأبيات :

مالأني حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لاندل البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
والما نأخذ ما أعطينا ونحن كالزروع لزارعينا
ننبت ما قد زرعه فينا

فما يكاد يسمع زوجها بهذه الأبيات، حتى يسارع إليها وإلى طفله
قائلاً : ظلمتكم ورب الكعبة !

ولئن نهى الشرع الحنيف عن وأد البنات، فإن نفوس العرب بقيت
تجافهن في الطفولة وفي المعاملة، فكانوا يأنفون من ملاعبتهن طفلات،
ويتأبون أن يسرحن ويمرحن بين أيديهم، ولا يجروئن على اللعب أمامهم،
أما الرسول عليه السلام فقد تأبى على ذلك إذ كان يحنو على بناته وبنات
صحابه، ولا يتجافى عن مناعتهن والرفق بهن صغيرات وفتيات، وبذل
الرحمة لمن والمعونة، فلما رأى المؤمنون أن «محمدًا» أبر بالبنات من
أبيها وأن الله لم يختص فاطمة الزهراء بنت محمد بذريته الشريفة إلا
تكريماً للأنثى ورفعاً لشأنهن أخذوا في برهن، والحدب عليهن، ولقد
حدث سعد بن أبي وقاص الفاتح العظيم وأحد أبطال المسلمين أنه مرض
بمكة مرضاً أشرف منه على الموت، فلما أعاده الرسول عليه السلام
سأله سعد : إن لي يارَسُولَ الله مالاً كثيراً، وليس يرثني إلا بنتي، فهل
أتصدق بثلاثي مالي ؟ قال محمد لا، ولما سأله سعد قائلاً : فالثالث ؟

قال الرسول : الثلث كثير ! إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ...

وقيل إن عمرو بن العاص رأى معاوية بن أبي سفيان يضاحك طفله ، فقبزم ابن العاص بهذه الملاطفة وقال للخليفة :

فوالله إنهن يلدن الأعداء ، ويبعدن الأقرباء ، ويؤدين الضعائ ... فقال معاوية : لاتقبل ... فما ندب الموتى ، ولا تفقد المرضى ، ولا أن على الحزن مثلهن ...

وتعاقبت الأيام والأحقاب ، فتطورت العقول ، وتداولت النساء أشات التقادير ، فأهملن قوم غاية الإهمال ، وأهملن شعب محلهم من الحرمة والكرامة ، فما فرق بين الجنسين في الحقوق والواجبات ، حتى صار من النساء في بعض الأمم الراقية الملكية والرئيسة ، والحاكمة والزعيمة ، دون أي استغراب أو استهجان من الناس ، وتبدل نظر الرجال إلى المرأة طوعاً أو كرها ، فما خفت موازينها إلا عند فريق ما يزال مستاثراً محتكراً ، وعلى الرغم من كل تطور في حياتنا الفكرية والاجتماعية فإن في هذه الأمة المتحررة المؤمنة ، أناساً ما برحوا يرددون سرّاً وعلانية : همّ البنات إلى الممات ...

وقد يكون بعض الحق مع هؤلاء القلقين ، لأن أوضاعنا الاجتماعية والسياسية لم تستقر على حال ، ولم تنتظم الثقافة كافة الناس ، على أن الأثرة الجنسية ، والحكرة في الحكم والتوجيه ، تتجليان في الطبقة الدنيا التي يسودها الجهل والتقليد ، ولكم حدثت أحاديث وعابذت مشاهد حول التجهيم للبنات والاستخفاف بشؤونهن ووجودهن ،

فمن تهديد ووعيد للزوجات الجليات ، ومن هجران وطلاق بعد
الوضع والولادة ، ومن نقمة وتشاؤم ، إلى تحذر وتكدر ، كل هذا
تراه وتسمعه تدمراً من الاناث ، وتشكراً لمن بغير حق ، فتعجب لهذا
الانسان الواهم الغاشم ، يسيل سيفاً من خشب في وجه الخالق وينسى
قضاءه وقول القرآن « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور »
وفي زماننا هذا بنات يبنين للحياة ، توزن الواحدة منهن بألف
من البنين ، لاسيما الموهوبة النابغة ، والذكية المبدعة ، وفيهن من
تعول أسرتهن وأهلها ، وتحمي ذمار قومها ، وتخدم وطنها بفنها وعبقريتها
أنما آن لها في هذا الأوان أن تخلص من امتهان الفروق الجنسية
واستثارها واستبدادها ؟ ومتى تنتزع الثقافة العامة من عقول
المتعصبين أوهاهم الجاهلية الموروثة ، نحو هذا الجنس الأنيس الرحيم
وقد كسبه القدر منذ القديم ظلم الرجال ، واستخفافهم بقدره وخطره
فواعجبي لقوم ينسون حكم الخالق ويخالفون عن أمره ! ولقد ضل
المصلحون سواء السبيل ، إذ حسبوا أن تعليم المرأة على اختلاف بيئتها
ومعيشتها يكفي وحده لرفي الشعوب ، وفاتهم ان تعليم الرجل قبلها
تعليماً صحيحاً وتهذيباً أثرته ، هو الذي يكفل الخير والفلاح ، لكل أمة
وإذا لم يكن للدين وللحضارة إلا حماية الاناث ورعاية الأمور التي
ترفع شأنهن وتحفظ كرامتهن وجهودهن لكفاهما فضلاً

فما أجدر إنسان اليوم وقد تطور وتعلم ، أو تنور وتفهم باحياء
البنات وتقديرهن تقديراً يعبر عن تجرده من أثرته الموروثة ، ويعبر
عن استجابته لروح الحق والعدل ، وما يكفي من الاحياء أن

يتناول المظاهر والجسوم ، وإنما ينبغي أن يتصل بالأرواح والعقول
فيمتد فيها العزة والكرامة ، والهزة للخير والمعروف ، وما تنفع في
هذا ثقافة زائفة وتبرج وزينة ، وتطور في الأزياء ، بل الاحياء كل
الاحياء بانتزاع الأثرة الجنسية من ظلمات القلوب ، وخلق للبات
جديد ، يقطع عنها لوم اللاتمين والغاشمين ، وتهكم المتربصين ، فتحيا
في ظل العلم والأخلاق ، حياة تنفع الأسرة والمجتمع ، وترفع
شأن الأمة والوطن .

السرّي الأسريّة

هذا الفيض الإلهي العجيب ، تنفجر بناييعه من أعين البشر ،
لله لامن عيون الارض التي تنبجس من خلال المندر والحجر ،
أو تنساب في الحدائق والمروج ، فتنبت الشجر وتعقد الزهر والثمر ،
وانما تفيض هذه الناييع من النواظر والمحاجر ، تثيرها المشاعر
الحساسة وتفجرها الفجائع والحسرات ، حتى تنسكب على الحدود
كاللؤلؤ المنشور ، وقد تغلو فتندحر على النحور ، حتى تبلل الحمل
كما زعم الشاعر امرؤ القيس الذي فاضت مدامعه صباة ووجدا .

والدمع كما أحسه هذا الملك الشاعر ، عزاء القلب اللاهف والنفس
المفجوعة ، ولقد تمناه امرؤ القيس شافياً ومواسياً ، حين تقاذفته
الفلوات والخطوب ، وحملته على غوارب الغربة والقطيعة ، وأي
امريء خلا حسه من بواعث الكآبة واللوعة ، التي مهما تقارى عليها
وابقاها مكفوفة مكبوتة ، فلا بد ان يقلت منه ما يشير اليه ، بأنه يبكي
دمعاً ودماً من قلبه لا من عينيه ، فاذا مست هذا القلب الشجون ،
وأمصته الآلام ، تحامل صاحبه على نفسه ، وكأنما انقضت ظهره
تكاليف الحياة وبغفات القدر فيتهاوى على قلبه او يمسكه بيديه خشية ان
يطير من حدة الهموم وزحمة الرزايا ، واذا عز عليه الصبر واعتراه القنوط
اخذ يقلب وجوه الساوى والعزاء ، فلا يرى امامه وجهاً لها ثباتاً مخلصاً
فيفزع الى الدموع والزفرات تمده بالفرج والراحة ، ثم يكفكفها
ويعسجها ، حتى تجف وتنضب ، الامدامع المنكوبين والمفجوعين
وعبرات الواهات والمثاكيل ، فانها لا تنطفي ولا تهدأ ، وما تنتهي

او ترقأ على طويل الزمان والتسكاب ، وإنما تؤيدها الايام والآلام
غزارة وحرارة ، فكانتها ذوب الارواح الجرحى ، بل هي لهب الصدور
الذي لا يحمد لظاه بهمود الاجسام .

اما دموع المرأة اذا صدقت ، فهي كالزهرات العاطرات ، او
كقطرات الندى في البكور على الورد والريحان ، ومن حق الادب
ان يلم بها واصفاً ، وان يتحدث عنها مترجماً وكاشفاً ، وسامح الله
الشعراء فهم الذين سكبوا من الدموع اكثر مما سكت النساء ،
حتى لا تكاد تجد واحداً منهم سواء كان عريباً أم اجنبياً ، قد خلا
شعره من ادمع ونحيب ، وقد يستثيرنا الرفق والعجب لو ان هؤلاء
النواحين المتشاعرين ، او الذين تسميهم المجاملة شعراء ، قد صدقوا
بشعورهم او دهمتهم كتابة في حياتهم وخيبة ، لكانت لهم عندنا معاذير
ولكننا نجدهم بكائين بمنظومهم ، شاكين فيه بشاً موهوماً ، او همماً
مقيماً ، وهم الناعمون المتوفون في معيشتهم ، المستقرون في حياتهم
يقولون بنظيمهم ما ليس في قلوبهم ، وبحسبي ان اجد لبعض الصادقين
في شعرهم الدميع عذراً ، قد لا يكون جميلاً او مقبولاً ، وهو ان
نفوسهم الرقيقة الشفافة ، وطبائعهم الناعمة الوديدة شبيهة بشعور
النساء وامزجتهن الرقيقة اللطيفة ، ولا تثير على بعضهم من عبث
بهم الفجائع والمواجع ، فلو صفت الحياة وضحكت للشاعر لامتريتن ،
وطابت لنده موسيه ، لما فاض منها الدموع بتباريح جرازيل
وحسرات رفاثيل ، ولما كان في شهور القطيعة والاسى ليالي الفريد
الحالدة ...

على ان دموع المرأة فرجة من همها وألمها ، وراحة لروحها
المرهفة ، ومن ذا الذي لم يستشف امرأة تفرغت عيناها بالدموع
او أمسكتها بين الجفون ثم سالت كايوية أو شافية ؟ الا ان البكاء
والنساء صنوان ، ولقد بكين من يوم حواء ، وما أقرب بكاء المرأة
اليها وما احناه عليها ، فليس بينها وبينه حجاب ولا حساب ، إنما
تبكي طفلةً وعجوزاً ، وتبكي غنية وفقيرة ، تبكي اذا تأملت او أثمت ،
وتبكي اذا زلت ثم ندمت ، وتدمع من فرط السرور واحتياج
الشعور ، وتستجيب لها المدامع ، اذا حم عندها فراق او خاب لها
رجاء ، وتجد في نفسها من سرعة البكاء وسهولته ما تجده من افتراق
البسات على شقتها وتسلس الضحكات الى فيها ، وذلك لركة قلبها ،
ورهاقة حسها ومزاجها .

ولقد كانت المرأة العربية اذا تجهم لها الزمان وامضتها الاحزان ،
فاض دمعها شعراً ، تقوله عفو الحاطر وعلى سجية الفطرة والالهام ،
حتى بذت الرجال في صدق الرثاء ، وكم فيهم شعراء يتكلفون المراثي
ويصطنعون المآسي ، للنباهة والظهور ، وقديماً استهزأ المتنبيهمون
بالمرأة ، وعيروها بالنوح والبكاء حيناً صادقة ، وحيناً كاذبة ، وقالوا
ان الدمع سلاح المرأة ، ولنعم السلاح هذا ، فهو لا يفسك دماً ولا
يدمر بيتاً ، أو ليس له الغلاب عليهم احياناً ؟ ولئن عده الرجال
سلاح الضعفاء فان الخالق أعده للنساء ، لئتم به انوثتهن وخصائصهن
وبدونه يكن قاسيات القلوب ، نايات الطبع والشعور ، وكان
المتنبى من هؤلاء المستهزئين ، المعيرين بالحصول من السلاح على البكاء ،

و كأنه كتب على نفسه اشفاقنا عليه ، حين جاءه العيد ، وكان
كالشريد ، لاجيب عنده يرق لنجواه ، فبكى في شعره وشكا ، وعلى
طرف النقيض من أبي الطيب كان الشاعر ولي الدين يكن ، يفدي
المرأة ، وينافح عنها ويغالي بدموعها ، ولما كتب روايته التمثيلية
عن عهد من عهود الاستبداد ، جعل «هجران» تبكي في حضرة مولاهها ،
لتستدر رحمته ، بعد ان أحرقت ستور قصره ، لتشار منه وتنال ،
فعلمت ان ساعة هلاكها قد اقتربت اذ صرخ فيها :

- لاتخذعني بهذه الدموع ، فكم خدعت بها سفيراً !

ولكم بكى رجال بدموع التماسيح ، فنسجوا من حباتها خدعاً
وأحابيل ، أغروا بها غفلاً وغرائر ، وهي لعمرى شبيهة بدموع
النوادر المستأجرات ، والمرائيات الداهيات ، فأفسد الخلق ذكراً
او انثى ، أغلى فيض حفرت نبعته يد الخالق في رأس الانسان ،
وأودعتها من اسرار الحياة ما أعيا البصائر ، فانه ليس في الوجود
اروع من دمعة صادقة ، هي افصح في صمتها من شقشقة الكلام
وبلاغة اللسان ، ولرب عبرة حائرة ، اذا فاضت بها الاحزان
والآلام ، تكاد تكون كاوية للاجسام ، لو قدر لها ان تكشف عن
حقيقتها وسر لهفتها

ولا ادعو المرأة وانا اتحدث عن دموعها لاث تبوع وتغلو في
تسكيبها في كل ماعز وهان ، وان تريد في عبوس الدنيا كآبة
وجحامة ، وهي المخلوقة للانسان والسوى والواساة ، والتخفيف عن
مواجه الحياة ، فعليها ان تحفظ دمعها غالباً لمشاهد البؤس والحزن

ومواقف البر والحنان ، فاذا أمت بيتيم او محروم ، أعرب دمعها
عن الرحمة ، وهزها الاحسان والصدقات ، واثن كذبت الدموع
واختلطت شؤونها بشجونها ، تبين فيها من بكى ممن تباكى ،
فأن هنالك امرأة عبرى ، مرت في دنيا العرب ، ولم ينبج الدهر
مثلها ، وسوف تبقى دموعها بوهاناً على ألمها وحزنها ، تلك هي
الخنساء شاعرة البكاء ، التي بليت شعرها بالدمع الصبيب ، وستبقى
هذه الوالهة في تاريخ الادب وعلى فم الزمان ، مثلاً سروداً على الصدق
والحنان في دموع المرأة .

ولئن خلد الخنساء قصيدها في الرثاء ، فحفظ الأدب دمعها في
عيون الشعر ، فكلم بكت بعدها شاعرات والهات ، كن يسكن
العبرات في صمت وانطواء ، ولم يبلغ عويلهن مسامع التاريخ
فيخلده في الرثاء كما خلد الخنساء ، وقد طواهن النسيان ومسح
الزمان على تلك العيون المستعبرة فجفف دمعها ، حتى كانت في آخر
هذا الركب الشاعرة « عائشة تيمور » على ضفاف النيل

لكأنني أراها متلففة برداء الحداد ، لا يرقأ لها دمع على بنتها التي
بكتها طويلاً ، حتى ابيضت عيناها من الحزن كما بكى يعقوب
فقد يوسف

ولئن رد على ذلك الشيخ المفجوع قميص ابنه فارتد بصيرا ،
فهيها ، هيها . . . مارد الدهر على « التيمورية » منديلاً ولا قميصاً ، ولعل
شعرها الباكي يكون في أدبنا العربي رجوع الصدى لعويل الخنساء ،

لكأنني أرى صورة هذه الشاعرة الواهية، تعود ناضرة شابة، تموج على
مهاد فلسطين، فتمضي في حمى « نابلس » وتعلو جبل النار لتسفع
من هنالك الدمع الغزير على أخيها « ابراهيم »

تلك الشاعرة الملهفى « فدوى طوقان » فلكم أرسلت الشعر
بعد الشعر، في رثاء أخيها الذي تفتح كالزهر قبل أوانه، وملأ دنيا
العرب بعبقريته، وكانت فارغة من الشعراء الملهمين

لقد قصف الداء غصنه الرطيب، وهو في ريق الشباب، فراحت
من بعده « فدوى » تفديه بالدمع السخين، والشعر الرصين

المرأة والتعليم العالي

جاز للنقاد الأدبي أو للمعلق السياسي، أن يتصدى لمقال منشور
لشخص فيبين أثر انطباعه في نفسه ، ويكشف عن وجوه الفكر
فيه وانحراف القلم عن السداد ، فجائز في هذا الباب ان يكون
للمستمع حق في ان يتصدى لحديث مذاع ، فيظهر أثر وقعه في
النفوس ومدى الصواب او الخطأ في أسلوبه ومراميه .

كذلك أقبلت على استماع الحوار الذي دار بين نخبة من ذوي
الفكر والثقافة ، فيهم المصري والسوري واللبناني والعراقي ، ولن
أعجب لهذا الاتفاق الذي اتاحه موسم الأونيسكو في بيروت ، فان
مندوب الاذاعة العربية لمحطة الشرق الادنى قد تحين تلك السانحة
المواتية فدعا فيها، لحديث مشترك الاساتذة الكرام محمد شفيق غربال
بك وكيل وزارة المعارف المصرية ومن جهابذة التاريخ الحديث
في وادي النيل ، ومتى عقراوي من قادة الفكر في العراق ، وجميل
صليباً عميد المعهد العالي للمعلمين في سورية ، وعبد الله المشنوق من
اعلام الثقافة والصحافة في لبنان .

دعي هؤلاء المفكرون ، للتداول في موضوع معاصر خطير يمس
الحياة العلمية والاجتماعية في البلاد العربية وهو « المرأة والتعليم العالي »
وقد أقبلت على السماع اقبالي على القراءة والاطلاع ، وهذا من
اجل روائع الحضارة الراهنة ، فمن لا جدادنا الاوائل حين كانوا
يتقنون في السماع ، ويبتغون اليه الوسيلة ؟ حتى صار عندهم طريقة

في تلقي العلم والمعرفة ، فكانوا يخفون آباط الابل ، فيسمون بأخفافها وجوه البيد ، سعيًا وراء التلقي والسماع ، من عالم كبير او شيخ خطير ، ويجرّصون كل الحرص حين يروون ويكتبون ماسمعوا ، على ان يذكروا مكان السماع ، وكيف جرى أمره وخبره ومن كان معهم في حلقة ، حتى أدخلوا في الادب مناهج السماع في الحديث ، فأطلقوا على أفذاذ هذا الفن القاباً خاصة به ، كأن يقولوا كان فلان من أصحاب الساعات العالية ، اي انه كان يأخذ الحديث من الصحابة والتابعين ، وللادب صحابته وتابعوه ، سقى الله عهود تلك الحلقات العامة والمجالس الزاهرة التي كان فيها هواة الشعر والأدب ينصتون للمتحدث او الناقد مأخوذين بسحر البيان ، وفصل الخطاب .

أولئك قوم كانوا يقدرون قدر الكلام ، فلا يغادرون منه صغيرة ولا كبيرة ، الا تثقفوا بها وتلقوها بالوعى والتمحيص ، وسلكت مسامعهم على هون وهدي ، لتستقر حتى موتهم ، في قلوبهم الذكية ، وخواطرم الصافية .

وما أحسب في بدائع هذا العصر منحة هي أجمل من منحة المذيع للأسماع ، ولعل المبصرين لا يحلون هذه الهبة الغالية محلها من العناية والرعاية ، كما يحلها المكفوفون ، ففي استماعنا للأحاديث المتعة النافعة ؛ والمطارحات البارة ، والغناء الحلو الرخم غنية اية غنية لنا ، معشر الفنانين على الارض .

بهذا الشعور ، كنت ارفع السمع للحوار الطريف الذي دار بين صفوة من اعلام الفكر والثقافة قطف خواطرهم مندوب الاذاعة ، قطاف الشميم لطافة ريا من الازاهير ، جمعها من حدائق اربع : واحدة يتهادى بين اعطافها النيل وبطل عليها النخيل ، وثانية ينساب في ميثائها دجلة معبداً سجدس اللبالي ذكرى العباسيين وثالثة يموج بردى بين نيربها ، فيبعث أمية حديثة في القرن العشرين ، وأما الرابعة فيداعب البحر أذيالها ويترنح الصنوبر والارز فوق لبنانها .

سأل السائل مارأي السادة المتحاورين في تعليم المرأة تعليماً عالياً ؟ وكان الاخرى به ان يسأل مارأيهم في تعليم الفتاة العربية تعليماً عالياً ، لأنني أجد كلمة الفتاة هي الحجر الكريم لهذا الخاتم الجميل ، وقد استهل الكلام الاستاذ غريال بك ذاهباً الى ان التعليم في جميع مراحل حق للبنين والبنات على السواء ولا ينبغي ان يقتصر نوع منه على الفتى دون الفتاة ، على أن تأخذ منه بما هو أجدى عليها وأولى بها ، وأن تراعى في ذلك الحاجة والاسباب ، ولعله شاء ان يقول بان تقبل الفتاة على التعليم الذي يمت الى حياتها وطبيعتها بسبب ، فالطب مثلاً ضروري لها والتدريس ، وان لم يصرح بهذا ، والمحاماة والهندسة قد لا تنفيدها الا بمقدار ، فانبرى له الاستاذ المشنوق مستهجنأ متهولاً بهذا الرأي ، ولو لم أعرف شخصه ، لتخيلته من وراء المذياع شيخاً زميناً ، مكور العمامة ، مسترسل اللحية

طويل السبحة ، اذ كانت هجمته برمح وسيف ، ولم تكن بقذيفة
ورشاش من الرصاص ، لأن الراي الذي جاء به يعود زمنه الى
عهد الهجوم بالرمح والسيف ، ولعل القارئ او القارئة ممن لم يستمع
لذلك التجاور يعاجلني في ان ايسر رأي الاستاذ المشنوق بتعليم
الفتاة العربية ، لكنني أخشى عليه من فتياتنا الغاليات في العناد ،
ان يقمن عليه حرباً عواناً ما حسب خطر البسوس عنده كخطرها ،
ولن يكون سلاح هؤلاء الفتيات المتأليات سيوفاً ورماحاً ، ولا
قذائف او بنادق ، وانما سيحشدون اليه ادوات المطبخ من كل شوكة
ومعلقة ، لأنه يريد الفتاة للمطبخ ، ويريدها للنسل فحسب ، ويريدها
على ان لاتبرح البيت ، فهو يحرم عليها بالثلاث ان تتعلم تعليماً عالياً ،
ويسد باب هذا التعليم في وجهها ، ويضع عليه قفلاً ضاع مفتاحه ،
ويجتمد النقاش بين غربال بك وبين الاستاذ المشنوق حتى يشبع في
كلام الطرفين شعور السامع بالدفاع والهجوم ، وكانت الحرب منذ
وجدت لانتخلو من حكمة وشورى ، فقد كان العرب في الجاهلية
يستطلعون رأي ابن ساعدة الايادي في بعض مغازيهم وأيامهم ،
وفي العصور الاموية والعباسية ، دخلت الحكمة والفلسفة بين
المجادلين ، وكذلك كان الشأن في هذا الحوار الذي اخذ شكل
حرب فكرية ، فأقبل الدكتور صليبا ، وانا اعرف سمته واناته ،
وفرقت بين الخصمين في الرأي ، ولا ادري ان كان قد اتبعت له
النجاة ، فان الدخول بين متعاركين ، لا يسلم من صدمة او خدشة ،

ولعل ذلك لم يبد للمستمعين والمستمعات، وقد يكون ظهر في نظرة او زمقة او اشارة ، فقال الدكتور صليبا بتعليم الفتاة ماتشاء من ألوان التعليم وفنونه دون حدود او قيود ، لأن اوضاع الحياة قد تغيرت وآراء الناس قد تطورت والمفاهيم العلمية والاجتماعية قد تجددت ، واصبحت المرأة في ايامنا يعوزها ان تتسلح بالدراسة العالية والجامعية أسوة بالرجل ، والمجتمع الراهن قائم على كفاية الجنسين ومجهودهما ، فينبغي ان تسود فيه العدالة الثقافية لتتقارب الافهام ، وتقل مسافة الخلف بين الرجال والنساء .

وكان الدكتور متى عقراوي على طرف النقيض بما جاء به الاستاذ المشنوق ، ولو أن هذا التماور كان دينياً لبرز الغلاة المتطرفون ، والزमितون المتشددون ، فاذا كان الاستاذ عبد الله من هؤلاء المتصلبين المتزمتين كان الدكتور متى من الغلاة المتطرفين ، اذ ارتأى أن تتعلم الفتاة العربية تعليماً عالياً مطلقاً ، لاتقف في سبيله طبيعة ولا حاجة ، ولا بأس عنده أن تكون المرأة العربية طيارة أو مهندسة أو غواصة ، وها هنا يقف الاستاذ عبد الله وحيداً في معسكره اذ يكون الثلاثة متقاربين ، فيعيد الكرة في الهجوم متفزعاً بما سيؤول إليه الرجل والمرأة في هذا التعليم ؟ فهو يخشى ان تنزل النكبة الكبرى في الزواج والأمومة والاسرة ، اذا تحقق التعليم العالي للجنسين على السواء ، واني لأعجب للاستاذ المشنوق وهو يعيش في عصر الذرة ، ومن المؤمنين بالتطور ان يترد الى آراء

المعري وشوينهور وروسو وأمثالهم من أعداء النساء ، وقد أكل
الدهر على هذه الآراء وشرب ، وادرك الناس سرها وخبرها ، وطلع
من بعدها لاساطين الفكر وعلماء التربية والاجتماع آراء
ومقررات حديثة مبنية على الخبرة والتجارب تسائر الحاجة والزمن
وتعد المرأة حياة يقتضيها هذا العصر ويدعو اليها التطور ، واذ كانت
الامة العربية في نهضة من كبوة متطاولة ، فهي بحاجة ماسة الى
الاخذ بالمذاهب المعاصرة في التربية والتعليم ، وما له صلة باسباب
الارقي السريع ، وبلادنا اليوم محط انظار العالم ، لاسيما بعد ان اقتحم
اليهود بهرتها ، فاذا كان هؤلاء الدخلاء ، والغريبيون الاقوياء ،
آخذين بمذاهب التعليم الحديث في اعداد المرأة اعداداً ثقافياً بلائم
الحياة ، فهل يرضى الاستاذ المشنوق بان تلزم المرأة العربية المطبخ
ولا تتعداه ، وان تكتفي بالامومة دون ان تتطلع الى سواها ،
وقد ثبت في حربنا الاخيرة مع اليهود ان كل فتاة منهم وكل
امراة ، كانت مجندة فيها او عاملة ، ولم يكن اكثرهن أميات او
جاهلات ، وانما كن متعلمات ومثقفات .

ولا نثريب علي اذا ذكرت للزميل العزيز الاستاذ عبد الله
المشنوق ان هذه النعمة التي يرددها في حواره ، او هذه النعمة التي
يحملها في صدره ، قد سبقه الى تردها الاستاذ العقاد والاستاذ
الحكيم في مصر ، وكانت لي معها مواقف نقد وعتاب
حول هذا الموضوع ، اذ كنت عنيدة لهما فيما اصطنعا من عداوة

للمرأة حين لم يعرفها على حقيقتها ، ولم يؤمنا بكفائتها ومزاياها ،
أما الاستاذ المشوق وهو من موجهي التعليم في لبنان ، ومن القائلين
بمسيرة العصر فكيف تخامره هذه المخالفة القاسية ، ولأقول العداوة
التقليدية ؟

وكيف تم الامر فقد انتهى التحاور والنقاش دون ان يجمع
أصحابه على رأي واحد أو توجيه شامل ، وكان الأخرى بان لا يضيّق
على هذا الموضوع ولا يرتجل فيه الرأي والفكر ، فقد يقتضي للخوض فيه
مناظرة واسعة ، او محاضرة محكمة ، يحشد فيها المتكلم حججه البالغة
وبهاناته الدامغة ، ويسرد الشواهد من الشرق والغرب ، على ان
وجه التوفيق فيه أنه جمع نخبة من اعلام الفكر والثقافة ، تدرس كل
منهم بشؤون التربية والتعليم ، ولا انكر ان تلك السانحة العابرة
قد عاجلت المتحاورين فلم يحيروا الجواب الكافي حول الموضوع ،
وبقيت في انفسهم آراء لم يعرضوا لها ، ولو ان سيدة مثقفة خبيرة
بهذا التعليم شاركتهم في الحديث ، لكان لها رأي يخالف عن آرائهم
او يضي معهم فترة ، ثم ينعطف الى وجهته التي ينساب فيها ، وقد
يكون من الجور ان يتناول الرجال وحدهم ما يتعلق بحياة المرأة
وقضاياها ، فيدرسوها ويقطعوا بها أمراً أو يتركوها للزمن ، دون أن
يسألوا المرأة أو يعبئوا برأيها ، ولئن جاز هذا في الماضي ففرد
الرجل بالرأي والحكم ، كأنه الوصي الابدي على القاصر الذي
لا يرشد ، فقد تبدلت اليوم العقول ، وتحولت المفاهيم ، وادرك أهل

الفكر والوعي أن لا قيام لأمة بغير نساها ، وارى أن يتباح التعليم في مراحل الابتدائية والثانوية للجنسين على السواء ، وأن يكون للمرأة رأي ويد في الاشراف على هذا التعليم ، وتحقيق اهدافه ومراميه ، اما العالي أو الجامعي فإنه يقتضي وعياً كافياً وثقافة متينة في الفتى والفتاة ، ولا يعد هذا التعليم استتماماً للمرحلتين السابقتين ، بل ينبغي أن يكون مقصوداً على الموهوبين والنوابغ وذوي الاجتهاد المكين ، والرغبة الاكيدة في الجنسين ، فليست الدراسة العالية والشهادات الرفيعة ، زينة للفتى او حيلة للفتاة ، ولا وسيلة للوظيفة ، وانما هي أفق بعيد لقطاف العلم والادب ، وتحقيق الانتاج الفكري والابداع الفني ، وقد تكون المنالة المادية ، من مقاصده واهدافه ، لكنها ليست الغاية ولا النهاية ، وخير للفتاة الف مرء ان تقنع بالتعليم الابتدائي او الثانوي اذا كانا صحيحين ، فانها افضل من تعليم عال او جامعي يزيد في جهلها وملؤها سخفاً وغوراً .

ومن عجب ان يعالج هؤلاء الاساتيد المتحاورون تعليم الفتاة العربية تعليماً عالياً ، ولا ينظروا الى تعليمها الراهن ، وهل هو قائم على قواعده المحكمة حتى تمضي الفتاة بعده الى المعاهد العليا والجامعات ، فأشبهوا عندي بمعالجتهم هذا الكمال ، اناساً بحثوا في كساء الرأس لمن لا يزال عارياً او حافياً .

فاذا بني تعليم الفتاة على دعائه الراسخة ابتدائياً وثانويًا ، صحّ بعد

ذلك ان يرفع بناء التعليم عالياً ، وحينئذ لامناس من فتح الابواب لمن توافر لديها الاقتدار والموهبة والذكاء ، والا فلا تريدوا الفتاة زهواً وخيلاء فيما تصنعون لها من بهرج الالقب التي ما ترى الا القليل من حاملها ، قد رفعوا شأنها وحفظوا حقها .

وقد تتفاوت الحاجة الى التعليم العالي بتفاوت الاستعداد والبلاد ، فالتدريس والطب والآداب والفنون ، تجدي على المرأة العربية المعاصرة ولا تعوقها عن رسالتها ، بل تكون سبباً للتجويد في عملها ، وامتداد الآفاق امامها ، ولا ضير على الفتاة الموهوبة بان تكون مهندسة او زراعية او عالمة بالطبيعة والرياضيات ، فان مدام كوري أمت صنع زوجها ، وزوجة فلانماريون الفلكي ماتزال تدير وهي في شيخوختها لوالب المنظار الكبير الذي شاب زوجها امامه وشاخ ، وكثير من النساء يشرفن على مزارعهن في اوروبة واميركا ، وقد دلت المرأة التي تعلمت تعليماً عالياً ، على انها اكثر من سواها صلاحاً للحياة الزوجية والمنزلية وان تعليمها هذا قد زادها تعلقاً بالزوج والولد ، والماماً بشؤون التربية والبيت ، واستطاعت الى ذلك ان تمارس عملاً تتقنه ، وتكسب منه وتفيد المجتمع ، ولم يؤد تعليم المرأة عندنا الى مضرة او مساءة ، بل فتح للمرأة آفاقاً جديدة صرفتها عن اللهو الفارغ واللغو الثقيل ، ولو انصفنا وقلنا كلمة الصراحة ، لوجدنا ان النساء جميعاً يؤثرن في الرجال مهما كبر الرجال ،

فان كن متعلمات كان منتوج هذا التأثير أقرب الى الخير والصواب،
وابعد عن الشر والضرر .

ان هذا العصر يكشف ظلامه المرأة، ويضع حداً لغالو
الرجال في تحرجهم من ظهورها، ومهما وضعوا في طريقها من عثرات
فانها قادرة على تذليلها ، ماضية في سبيلها ، وقد اتاحت لها الحاجة
والثقافة ، ان تقوم بأعمال كانت وقفاً على الرجال ، وقد كانت
المعامل في الحرب الأخيرة تدار بأيدي النساء . فكن يصنعن القنابل
ويربطن اجزاء الطائرات ، ويقفن امام افران الكهرباء المتوهجة
فيصهرن الحديد ، وليس عليهن في كل هذا من بأس اذ كانت لهن
ساعات يعدن فيها الى بيوتهن واهليهن والى المطبخ الذي يريده
الاستاذ المشنوق (١)

وبعد فان غريزة الامومة أسمى ما تطمح اليه المرأة مهما كانت مكانتها
ومواهبها ، ولن يشغلها عن البيت والزوج ، وعن الولد والاسرة اي
شغل اذا كانت واعية مثقفة ، سليمة الشعور ، راجحة التفكير والتدبير

«١» يخيل الى من لا يعرف حقيقة الفن الذي اختص به الاستاذ المشنوق من بين
أدباء العصر ، أنه عدو للمرأة يكره لها الحرية المثلى والثقافة العالية ، والصحيح في
أمره أنه في أدبه من انصار المرأة المخلصين ، لكنه يصطنع حيناً بعد حين هذه
العداوة في صحافته ، لانه قد أتقن فنون الصحافة المعاصرة .

«٢» مندوب الاذاعة العربية للشرق الادنى هو الشاعر الاديب الاستاذ رشاد البيبي

الثقافة النسوية المنسودة

تعرف الانسانية عصرأ قد احتفى بشؤون المرأة كهذا العصر،
للم الذي قبض لها أسباب المعرفة والثقافة ، وأعد لها لكل مهمة
تقتضيها الحضارة الراهنة، حتى أنها سلكت مسالك الرجال في شتى
مرافق الحياة، بما دعا اولى الامر وذوي الرأي الى الاهتمام بتطور المرأة
وتوجيهها نحو ثقافة خاصة تعصمها من الزلل والانحراف ، وتضمن
لها السمو والسداد فيما خلقت له وندبتها اليه طبيعتها ومواهبها ، وقد
بدأ لي ان اتساءل : وهل ينبغي ان تكون للمرأة ثقافة خاصة غير
ثقافة الرجل ، وهذا العصر يهدف الى مساواة الجنسين بالحقوق
والواجبات ؟

نعم ، فان الحكمة والتجارب تقتضي بأن يكون للنساء ثقافة
خاصة الى جانب الثقافة التي يشاركن فيها الرجال ، ولعل المرأة
العربية لم تكن في ميسر الحاجة اليها كهذه الايام لكي تسير العصر
في تجديده وتحفزه ، وتسير في ركب المثقفين الذين استجابوا لمطالب
الحياة واحاط وعيهم بكل تطور فيها

الثقافة من الكلمات المحظوظة في زماننا ، اذ كانت منكشحة
في ثنايا المعاجم وفي تصانيف اللغة ، لم ترددها اقلام المعاصرين وما
صقلتها السنتهم الا منذ عهد قريب ، فهي خفيفة اللئط ، كبيرة الخط
من المعاني والاهداف ، فيها من قوة الحياة ما يشف عن روح الامة

التي انبثقت منها ويكشف عن اصالتها وطموحها ، واذا قلت ان كلمة الثقافة ، حديثة الشيوع ، رمزية المعاني فلا يقع في الاوهام أن العرب لم يعرفوها ولم يالفوها ، فما اكثر ماوردت في اشعارهم واخبارهم ، وانما تضاربت اقوالهم في مراميها وتباينت في تداولها ، اذ كانت هذه اللفظة كغيرها من الالفاظ المنتزعة من الحياة في البسادية ، معربة عندهم عن تسوية الرماح وتقويمها ، ثم آلت في عصور الفتح والحضارة الى معان آخر ، اقتضاها التعبير الجديد فدخلت باب الرمز والمجاز ، ولقد درجنا نحن العرب المعاصرين على فهم هذه الكلمة من نواحيها الاجتماعية الحاضرة ، وتوسعنا في الوسائل التي تؤدي اليها وتؤديها لانبساط آفاق الحياة في ايامنا ، وتمازج الثقافات عندنا ، فجمعنا بين ما اراد الشرقيون منها وبين ما عناه الغربيون الذين يرون ان اثر الثقافة في الناس كثر الفساحة في الارض ، هذه تحرثها وتنقيها ، لتؤتي اكلاها ويطيّب جناها ، وتلك تهذب النفوس وتغذي العقول لتسمو الحياة بسموها .

كذلك غدا مدلول الثقافة شاغلا حيزاً كبيراً في الدراسات والبحوث ، وعلى ضياء هذا المدلول الحايث اعود الى الثقافة النسوية الملهودة ، فأقول ان وسائل هذه الثقافة اصبحت لدينا ميسورة موفورة ، ولعل اقربها تناولا ونفعاً هي المعاهد العلمية ، فهل اصبحت المتعلّقات مثقفات ؟ وما هي المقاييس التي تقيس بها ثقافتهن والموازن التي يرجح بها قسطاس المثقفات ؟

يتفاوت نظر الناس الى هذه الموازين وتلك المقاييس ، فمنهم من يقدرها بالشهادات المدرسية والالقاب العلمية ، فلا ترجح عندهم كفة متعلمة الا بمقدار ماأحرزت منها ، وبات اولو الامر لا يحسبون حساباً لغير مااصطاح عليه الناس في هذا التقدير ، وذلك شأن الامم اللاتينية التي تزن كل كفاية ودراية بميزان الثبوت والاجازات مهما كان نوعها وحاملها ، حتى وقع في حسابان فتياتنا انها غاية المعرفة ونهاية الثقافة ، فابتغين اليها الوسيلة ، وسعين بكل ماوتين من جهد وطاقة مأخوذات بما عقدت عليها من رجاء ، حتى اذا ظفرن بها وحظين بالوظيفة المنشودة ، فتر فيهن السعي وانقطعن عن كل درس وبحث ، نابذات وراء ظهورهن الاسفار والدفاتر التي حفظن نصوصها ليوم معلوم ، كان خاتمة المطاف واستقرار النوى ، وقد فاتهن ان الثقافة لاتوزن بثبت مكتوب ، ولا تثبت في طلاء زائل ، فهي فيض روحي وعقلي ، وقوة سحرية خفية تميز المثقفة من غيرها ، وتضيء آفات تفكيرها وحياتها بشعلة الحق والجمال .

وفي الناس فريق يخيل اليهم ان مقياس الثقافة النسائية يقوم باشتات المعرفة النظرية التي تتلقاها الفتاة وهي طالبة ، من رياضيات وطبيعات ، ومنطق ولغات ، وأن هدف هذه المعلومات المتنافرة الالوان هو التكبس باسمها والتفاخر بألقابها ، والا فما جدوى المدرسة والدراسة في نظر هؤلاء إن لم تكن وسيلة لضمان الوظيفة والمرتب ، وسبيلاً الى الشهرة والظهور ؟

ما كانت الثقافة لتعرف قيوداً أو حدوداً ، فهي عميقة كالبحر ،
رحيبة كالسماء ، شاملة كشعاع الشمس ، وحاشا أن تكون رسالتها
وغايتها للمنالة والاستغلال ، وشتان بين المتعلمة والمتقفة ، فقد تحمل
الاولى اضخم الشهادات ولكنها جوفاء المعرفة نائية الجانب ، بادية
الاسفاف في حياتها المنزلية والاجتماعية ، فهل تستوي ومن تثقفت
وتحررت من السخف وعرفت نفسها ومضت في موكب الحياة على
هدى العقل والبصيرة ؟ ولو ان رواءة فارغة ، او متنطعة متراطنة ،
قد ملأت المجالس بذكرها ، أتكون من المثققات ؟

ولا يبعد ان تكون ثمة واحدة على شاكلة هؤلاء تحلت بزينة من
المعرفة المصطنعة كطلاء الوجود وبهرجة الثياب ، ولا اطيّل في
وصف اشباهها ممن تلقين ثقافة عجفاء متخلفة ، لم تنفذ الى الاعماق
ولم تصل الازواق والاخلاق ، او ممن لا يستطعن أمساً ولا غدأ ،
غير انهن يرددن ما يسمعن دون تفكير او تمجّص ، فيسترن ما في
نفوسهن من غباء وهرأء ، راء ادعاء او كبرياء ، ويتشدقن بكلام تؤخذ
به الاميات والسادجات .

فالمثقفة هي التي تعلمت وتسامت في ايمانها وشعورها ، وامتد
خيالها ونفكيرها الى آفاق الوجود .

هي التي تنمي معرفتها وتغريها بمنتجات العقل وفيض القرائح ،
وتستمد من كل ثقافة مسبوقة او منظورة قوة تستعين بها على الحياة
هي التي تتبع كل جديد سديد ، ولا تبخل بثقافتها على جهود

✓ تبذلها لاسعاف الانسانية البائسة ، هي التي تسمعها فلا تسأم حديثها وتودلو انها لاتوجز ..

✓ وهي الى ذلك ربة البيت القزوم على الاسرة والولد ، لايخرج على طبيعتها وانوثتها ، معها سميت ثقافتها وتعددت مواهبها .

✓ وبعد فما هي الثقافة الخاصة التي ننشدها اليوم للمرأة العربية وهي على وصيد عهد جديد ؟

نريد لها ثقافة مكيمة تنفذ الى روحها فتصلقها ، وتثير فيها الشوق للخير والاحسان ، ثقافة ترفع مستواها وتحفظ تقواها وتشغل فراغها بما يعود على بيتها ومجتمعها باخير والفائدة ، على ان تشمل هذه الثقافة المنشودة على مايشق للفتاة المعاصرة آفاقا جديدة ويواقي الحاجة الراهنة ، كالفنون الجميلة التي تتفتح فيها مواهب الفتيات من موسيقى وتصوير وزخرفة وتطريز ، الى علم النفس وتربية الطفل وادب اللغة وما شابه ، واذا قدر لطالبة هذه الثقافة نصيب من ثقافة اجنبية ولم ندعمه بلغة اجدادها وتشعر بشعور بلادها ، فانها تعيش عدوة لقومها ، غريبة عن مجتمعها .

ولست في مقالي هذا بداعية الى حرمان الفتاة من الثقافة العامة والجامعية التي تعدها كما تعد الفتى ، فان توافرت الشروط والمواهب فلا خير على فئة من الفتيات بان يمضين نحو هذا الافق البعيد اذا كن يستطعن التحليق والتدويم في اجوائه المتسعة

اما الثقافة النسائية المنشودة ، اذا اتيج لها الظهور على قواعد

راسخة وتعمدها ذوات المواهب الفنية والتوجيه المرموق، ممن أوتين معرفة شاملة ومراعاة دائبة فإنها تحقق أمنية من أغلى أماني الامة ، باعداد مثقفات حصيفات ، وهن يتسنى للمرأة مشاركة الرجل في معالجة الفقر ونفي الجهل والهوان من الطبقة الدنيا اذا لم تكن مثقفة؟ وكان الامر يهون لو ان المرأة في بلادنا تقتصر على مثل هذه المشاركة في الاصلاح الاجتماعي مع ماهي عليه من تأخر ثقافي ووعي فكري ، لكنها طامحة ملحة في التماس حقوقها السياسية والاجتماعية التي لا يصح ان تحظى بها الا بعد ان ترقى الى مستوى الرجل المثقف ، والمتعلم المتمرس بالحياة.

وبما يبعث الامل والطمأنينة ان تكون مصر سباقة الى الاخذ بهذه الثقافة المنشودة ، والافادة من وعي المثقفات ونشاطهن ، فأُست للفتيات مدارس خاصة للثقافة النسوية والفنون الطرزية ومعاهد عليا للموسيقى والتصوير والتدبير المنزلي والتربية البدنية والخدمة الاجتماعية والامومة ، حتى بعث القاءات على نشر هذه الثقافات نهضة حديثة في دنيا المرأة المصرية ، قمنيات ان تقوم في بلادنا السورية حركة جديدة في التعليم النسائي ، تؤدي الى مثل تلك النهضة ، لان هذا التعليم ما يزال مهملاً لا يلقى عناية رتقديراً ، وثقافة البنات تجري على المنهاج المرسوم للبنين ، وكلاهما يهدف الى ضمان الوظيفة والمرتب ، اكثر مما يهدف الى التزود بالعلم والمعرفة او التمرس بالبحث والتوجيه

ومن عجب ان تستثني وزارة المعارف السورية بعثاتها الفنية النسائية من شرط الشهادة في الدراسة الثانوية ، فهل يصح لدى علماء التربية مثل هذا الاستثناء ، وهم يعلمون أن لاخير يرتجى من ايفاد طالبات مبتدئات الى مصر والبلاد الاجنبية ، وقد شهدت بنفسى حين كنت موظفة بمصر في أرقى معهد فني نسائي ان الطالبة الشرقية اذا لم تكن مزودة بمواهب خاصة وحاملة شهادة الدراسة الثانوية على الاقل مثل البكالوريا او المتر كولينشن فانها لا تقبل في المعاهد العالية وكذلك الشأن في أوروبا وأمريكا ، ومن اتيج لها ان توفد للدراسة العالية من غير استعداد ولا مؤهلات أصيلة ومكتسبة لقيت خيبة ومهانة أو راحت تلتبس الشفاعات .

ولئن كان المراد ايفاد المبعوثات اللاتي من هذا القبيل الى المدارس المتوسطة ، فليس هذا غير خسارة المال وإضاعة الوقت ، لان مدرسة الصناعات والفنون للبنات بدمشق ، تعادل أمثالها من « الثقافة النسوية » و « الفنون الطرزية » بمصر ان لم تكن فوق مستواهما ، فاذا كان ذلك القرار الاستثنائي اقتضت رسمه حالة خاصة فلا ينبغي اطلاقه ، لئلا تدخل من بابه كثيرون لاترجى منهم اية فائدة ثقافية او فنية .

ان التعليم النسائي في مصر لم يزدهر في نهضته الحديثة الا بجهود طائفة من صفوة المثقفات اللاتي أوفدن للغرب للتخصص والدراسة الجامعية والفنية ، فأفدن فوائد جلي تجلت فيما عهد به اليهن بعد العودة

من تدريس وتوجيه ومراقبة ، غير منحرفات عما اضطلعن به وكن
بسيطة او سافرن من أجله ، فليت شعري ماذا أفادت سورية من
بعثاتها النسائية إلى الغرب ؟ فأنا أعرف وغيري يعرف ان أكثر
الواتي ارسلن في بعثات علمية من سورية ، قد عدن كأكثر المبعوثين
من الطلاب والشباب ، مزودات بالشهادات ، وقد دخلن غمار التعليم
من اجل كسب الحياة ، ولم يظهر بينهن إلى اليوم كما لم يظهر في
امثالهن من الرجال ، إبداع ونبوغ ، ويعود ذلك إلى السبب الأول
الذي اتاح لهؤلاء مثل هذا المصير ، لأن النبوغ والتألق ، او المواهب
والمزايا ، لاتصنعها الشهادات ولا تمنحها الجامعات ، وإنما هي شرط اصلي
ينبغي ان يكون في المبعوث قبل بعثته ، بل هي من المقومات
الأولى للشخصية ، يزيد بها العلم والتجدد وضوحاً واقتداراً
ولقد آن للمعارف السورية ان تعني بالثقافة النسوية ، وتوجيه
الفتاة الوجهة المثلى التي تلائم طبيعتها وتكشف عن مواهبها وتسمو
بها فوق المنازع المادية ، فان البيت والمجتمع في حاجة ماسة إلى
ثقافة خاصة تسعد بها الاسرة والوطن ، ويرتجى من ورائها كل
خير عميم .

فتش عن الرجل

أكثر الناس لاسياً الرجال ، كلما وقع في الدنيا حادث
نعود جلل ، أو خطب فادح ، أن يقولوا ويرددوا هذا القول :
« فتش عن المرأة » ، فاذا رأوا قتيلاً أو غريقاً ، أو عرفوا شاباً قد
انتحر ، أو بيتاً سرقه اللصوص ، أو زوجاً شريداً هجر بيته وأسرته
ليبيت في الحانات ، أو خصومة قامت واحتدمت ، صرخوا جميعاً
بصوت واحد أو دارت بينهم الهمسات والوشوشات قائلين :
فتش عن المرأة ...

هذا القول الغاشم البغيض ، يردده الشرقيون والغربيون في
الصددمات والنكبات ، ويجعله الصحفيون عنواناً لبعض الأخبار في
صدور الجرائد ، لما فيه من إغراء وتنبيه ، على أن كثيراً من المتعلمين
والمثقفين إذا اطلعوا عليه أو سمعوه حسبوه لحكيم من حكماء
الغرب أو نسبوه لنابوليون ، ولو رجعوا إلى ذخائر الأدب عند
العرب ، لوجدوا ثمة شاعراً عربياً مجهولاً سبق بطل الافرنسيين إلى
ذلك المعنى بقوله :

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فتش عاينها تجدها من النساء تأت

ولعل صاحب هذا الرأي كان من أعداء المرأة على نحو ما فعل
بعض ادباء الغرب وشعراء العرب في الأيام الحالية ، أو على مثال

ما يفعل في زماننا توفيق الحكيم الكاتب المصري المشهور بعداوته
المصطنعة للمرأة ، التي لولاها لما ابدع في فنه ، ولما اوحى إليه أشنات
الفكر وروائع الأدب ، ومثل هذا المعنى كثير في اشعار العرب
القدامى والمحدثين ، وقد نظمه أديب من هؤلاء في قوله :

(إن حادث يوماً اهمك شأنه وجهلته فابحث عن النسوان
إني رأيت الشر إلا قله منهن مصدره على الانسان)

لو غاص اعداء المرأة الألداء ، او المتظاهرون بالعداء الى اعماق
الحقيقة والواقع ، وتجردوا من كل ضغينة وبغضاء ، لما جعلوا المرأة
موضع همزهم ولمزهم في كل حين ، ولأمنوا ببراءتها احياناً بما يصمونها
به ظلماً وعدواناً ، وحاشا ان ازعم ان المرأة معصومة من الشر ،
كاملة في سجاياها ونوازعها لاتصدر عنها نقيصة ولا دسيسة ، فأدعى
انها ملاك من الملائكة ، فكم بين النساء من حية رقطاء وداهية
شطاء ، تحوئ الفتنة وتصمى بالرزايا ، كامرأة العزيز التي جنت على
يوسف ، فلبث في السجن بضع سنين ، وهذه المرأة نفسها لو عصمها
العزيز من جمال يوسف ، لكانت في نجوة من هواها الأثيم .

ومن العجب ان تتعالى اصوات الرجال من حماة الشريعة
والقانون ، ورعاة الأسر والبيوت ، في بلاد الشرق والغرب ،
بشكاية النساء وتحذر طائفة منهن في مهاوي الزلل والخطيئات ،
وهم المسئولون عن خيرهن وشرهن ، غير انهم يجهلون او يتجاهلون
انهم كانوا مذ كانت المرأة ، سبباً في صلاحها او فسادها ، في سعادتها

او شقاوتها ، ولو استنطقنا الحدّثان لسمعنا ان اكثر فجائع الدهر التي حملت المرأة اثقالها ، وبأت بالملامة فيها كان سببها الرجل ، فهاتيك المرأة التي سلكها الزمان بالحيثات والآثات ، وهمّ برجمها الراجمون لولا حكمة المسيح عليه السلام - من يدري انها لولا احبولة البغي التي اوقعها فيها احد الرجال ، لكانت احدى القانتات الطيبات .

ولنعد القهقري إلى تخوم الأزل ، حيث وسوس لها الشيطان ان تأكل من شجرة الخلد ، لتحظي بملك لا يبلى ، فاذا بها تطيعه وتغري آدم بهذا الطعام ، فيكتب الخالق على الخلق حياة الأرض ، ويسقيهم بعد نصب العيش كأس الفناء ، وينطوي البشر جيلا إثر جيلا ، يلومون حواء حين تدهمهم الخطوب والهموم ، فيقولون لولا حواء ... وقد فاتهم جميعاً انها لم تكن هي علة الشقاء وإنما كان ابليس ، وضميره واسم إشارته في علم النحويّين ان على انه من طائفة الرجال لا من طائفة النساء ، فهل من العدل ان توصم حواء بهذا البلاء ، ثم توث بناتها من بعدها تركة هذا الملام ، ابد الأيام والاعوام ، فيقال في كل حين ، وفي كل محنة : فتش عن المرأة ...

مارأينا في قديم الدهر وحديثه امرأة اخترعت بندقية او مدفعاً ولا فتاة صنعت مدية او سهماً ، ففي الدنيا رجال سكبوا الحميم على الآمنين ، صبوا سوط عذاب على الأبرياء ، لم تبلغ مبلغهم نساء في الجور والعدوان ، وإن أوزار الحروب وفوادح الخطوب ، مصدرها

ابن آدم ، لابنته فهو الذي ابتدع وسائل الدمار وإبادة الحياة ،
ومن من الناس لم يبلغه حديث ابني آدم ، إذ قتل أحدهما الآخر
طمعاً وحسداً ؟ فكانت أول يد تلطخت بالدماء هي يد الرجل !
سلو خبايا المفسد ، ففى مطاويها بغايا ، هنّ ضحايا رجال ، لعل
الواحدة تقول :

كنت عنده خادماً فأغرى واغوى ...

وتقول الثانية : أخرجوني فأخرجوني

وتقول الثالثة : خطفوني وتركوني ...

وسلوا محاريب العباد ، وصوامع التقديس ، ففى اكنافها
عذارى زاهدات ، فهن من تقول :

— خان حبي ، وسحق قلبي ...

وتقول الثانية : سلبنى مالى وسيطر على ميراثي ...

ألا أيها الرجال اللوامون ، فنشوا عن أنفسكم ، قبل ان تفتشوا
عن المرأة ، هذه المفاتن الغالية والحلاعات الطاغية لمن تلوح وتبدو؟
وفيم تروح وتغدو ؟ أليست لمرضاة الرجال ؟

كيف ينشدون في المرأة عصمة وكالا ، وهم لا يحبون فيها ما يرضى
تقولهم دون نفوسهم ، وفيهم من ينهى عما يهوى بها إلى السوء ثم يأخذ
بيدها إليه ويدلها عليه ، وفيهم من يؤثر المتبرجة المنتهكة على الحصان
الرزان ، وفيهم من يستحي ان يماشي زوجه في الطريق ، إذا لم تكن
كالدمية في زينتها

إنها أبداً مرآة لميول الرجال وأهوائهم الظاهرة والباطنة، وكيفما
يكونوا يَكُونُ، فهم إذا شاءوا جعلوها ملاكاً، أو مسخوها شيطاناً
هي نبع فاشربوا منه سائغاً طهوراً، ولا تعكروه بالقذى أو
ترموه بالحجارة ...

هي قيثار فوقعوا على أوتاره الأنعام العذاب، التي تهدد الآلام
وتنشر الوثام والسلام .

فتشوا عن المرأة في تضديد الجروح، ومواساة المرضى، وإسعاف
المساكين .

فتشوا عنها في الأمومة الرحيمة، فهناك أقصى غاية الجود
والتفدية، تسهر لينام أولادكم، وتجهد ليستريحوا، وتقديمهم بالروح
مهما أساءوا .

فتشوا عنها في العزاء والوفاء، في الحنان والاحسان .
فتشوا عنها وهي أم الرسل والأنبياء الذين كانوا الهدى لضلال الإنسان
فتشوا عنها وهي والدة الأطباء والعلماء الذين خففوا مواجع
البشر، وثقفوا عقولهم وخففوا عنهم ...

فتشوا عنها وهي منجبة الأبطال والعابرة، الذين كتبوا لأمتهم
صحائف المجد والخلود .

أعداء المرأة

أمر من الرجل قد وقع ، وقضاء قد حم على رأس المرأة .
وكان الدهر أبى منذ الأزل إلا ان يقطع اسباب المودة
والصفاء بين الرجال والنساء ، فسخر من غلاظ القلب والجسم
من كادهن وتربص بهن ، وزعم متلطفاً أنهن شر لافرن منه ولا غناء
عنه ، فأساء الرجل الى جنسه ، وإلى من خلقت من نفسه ، فكان
كمن ضلّ وأضل . إذ كيف جاز في شرعة الحق والرجولة ، ان يخلق
هذا الانسان الجبارعداوة بين الجنسين ، او في دنيا مخلوقين يكمل كل
منها الآخر ومذ بدرت من الطبائع بوادر الخصومة والتهمك هب نفر
من الرجال وقد حسبوا أنهم يحسنون صنعا ، فتنادوا الى مناوشة النساء
والغص من حسناتهن ، أيقال إن العالم يشقى بشرهن ويعيا بأمرهن .
وأخذ المتنادون والأشباع يهتفون في كل جريمة وقعت او خصومة
قامت : فقتل عن المرأة ... ثم غدا الناقمون مباهين بعداوة النساء ،
فروعت بنات حواء ، وفزعن الى أخواتهن متسائلات :

من الشاهر سيفه ، الكاشر عن أنيابه ، الناشر لخالبه ، يريد بنا
الأذى ، وينوي لنا الردى ... ؟

فقلن هذا « أرثور » زائع الفكر والشعور ، رفع صوته في
الغرب ، يحذر من المرأة وينذر الناس بشقاؤهم فيها وذلك « التنوخي »
الضريز ، نفت نغمته في أرجاء الشرق ، فودت له النساء الشقاء

والثغناء . وخلف من بعد هذين الناقمين الفاسلين خلف ورثوا عنها
المساكيد والأضغان ، وصار إليهم جبل الماكرين ...
وبعد فما لامرأة اليوم حيلة بالأعداء الغابرين ، فقد ماتوا وخلوا
للمشايعين التابعين تراث العداوة لها ! وكانت تحسب أنها استراحت
من الأعداء ، فاذا هم اليوم خصوم ألداء ، يتداولون بينهم ذلك
التراث المحموم

من هؤلاء الخصوم في بلاد العرب توفيق الحكيم الذي جدّ في
عداوته للمرأة فطعن فيها ، ورماها بكل نقيصة في كتبه ومقالاته ،
ثم ظهر بوادي النيل عدو جديد ، على ان أكثر هؤلاء الأعداء من
المفكرين والفلاسفة ، ماشاع ذكركم ولا ذاع صيتهم إلا حين
تهجموا على النساء بالمثالب والتسفيه ، فاذا بمطاعنهم تدور وتحور ،
ويتردد صداها في كل مكان ، وينبسط مداها مع الزمان ، ويقبل
على بضاعتهم الشامتون بالمرأة والغاضبون عليها ، فيشترون من تلك
البضاعة المزجاة ويرتوون آراءهم الفائلة ، وإذا بها ترن في المسامع
وتطوف بالمجامع ، فيهتف التاريخ بأسماء : شوبنهاور ونيتشه والمعري
والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم ...

ومن عجب أن يجور هؤلاء الأعلام على النساء بما يخالف التطور
وينافي الواقع ، ليكتسبوا من هذه المناوأة والمكابرة شهرة جديدة
وصيتاً بعيداً . وطالما جار الثالبون على أنفسهم ، فتعسفوا وتكلفوا ،
وكانت خبطهم أعشى ، أليس من أمهاتهم وأخواتهم ، وخالاتهم

وعمايتهم ، ولم لأقول زوجاتهم وبناتهم؟ ثم استغفر الله مما فرط من القول وزلّ به اللسان ، فان كفيف المعرة كفت نفسه عن المرأة ، ولعل له عذراً ، فلو كان كجمل عينيه بجمال الغيد ، ولم يكن دمياً لاجتاحت قلبه واحدة من النساء غيرت معالم اللزوميات ، فلم يتهمكم علينا فيها بالتأثيات ، ولما أدارها معنا وقبعة سجّالا وخرّباً عوازا ، وان في كل بيت منها لسيفاً وسنانا . ولقد بنى أبو العلاء صروح شعره على ذم المرأة وما دل عليها ، وكان منها او إليها ، فالدنيا عنده أم دفر ، وهو أبدأً ينحت أثلتها ويبري عودها ، معتقداً ان كل خطب فيها سببه المرأة ، فهو هدام معطل ، لو أوتي قوة شمشون ، وكان مسبل الشعر لدكّ بهن العالم وأقفر الوجوه .

ومن يدري فلعل شوبنهور او نيتشه وسواهما من أعداء المرأة في الغرب والشرق ، إذ كرهوها وازدروها ، كانت وراء كل منهم امرأة افسدت عليه نعيم الحياة ، وسودت في عينيه بياض الدنيا ، فحسب الغدر او الكيد كله من شيم النساء . وإذا كان هؤلاء الأعداء الغابرين معاذيرهم في الغضب على النساء وفي عهود كن مستضعفات ، فأبي عذر للتأقمن منهن في عصرنا ؟ وكان هذه النقمة من بعض المفكرين في أيامنا خصومة منهم او دلالة عليهم ، فاذا ركد لهم صيت او فتر من حولهم إعجاب اثاروا لأنفسهم رياح الشهرة بمقال يرسلونه ، او رأي يقولونه ، في شأن المرأة ، فقدفوا بالباطل عليها ، ودعوا الرجال الى البطش بها ، وعدوا الحقوق التي تطالبها ضرباً من

الأوهام والأباطيل . من هؤلاء الأعداء نابغة مصر توفيق الحكيم الذي يجهر بعدائه للنساء في كل نهزة وسانحة ، ويسخر قلمه للسخر منهن ومن ثقافتهن ، وما كان هذا منه الا العوبة أدبية يلوح بها في وجوه الناس ليزيدهم لآثاره تقديراً ، وعليه إقبالاً ، ولعلمهم كانوا كذلك بادي الرأي ، أما وقد عرفوا أفانينه ، فان « توفيقاً » أصبح لدى العارفين أديب تربص وانتهاز ، فمنذ عهد قريب دعا قومه إلى تعدد الزوجات ، وحين نشر الدكتور طه حسين كتابه « أحلام شهرزاد » ضاقت عين الحكيم عن تسريح النظر في هذه الأحلام التي صور فيها الأديب العميد « شهرزاد » في رداء من الحصافة والذكاء . ومن قبل نشر الأستاذ توفيق الحكيم فصلاً عرى فيها المرأة من مواهب الفن فزعم أنها لانهن إنشاء القصص التمثيلية ولا تستطيع أن تكون موحية بتبكر الألحان ، وقد فاتته من أدبنا القديم براعة المغنيات في عصر بني العباس ، وفي العصر الحاضر من أهل اللحن نساء في المشارق والمغارب ، أما الروايات التمثيلية فعهد العرب بها جديد ، ولنتظر فات الزمان لم ينفد أمده ، وما يزال الانسان حياً ، فان في مأتى الدهر نجوماً ستنجم يكون بينها مؤلفات للمسرح وموسيقىات . ومن أعجب العجب ان تسكن عداوة الحكيم للنساء شهراً لتكون حياً جديداً للأستاذ عباس محمود العقاد ، فقد نشر هذا الأديب العظيم مقالين زعم فيها أن المرأة

لاتجيد من الفنون غير فن الرواية، وكان هذا الفن في نظره أهزولة هينة على كل كاتب ، وقال إن المرأة ليست بشاعرة مبتكرة بل هي مقصرة ومكررة ، لأن الشعر ابتكار واقتدار ، وأنهما لم تنبغ حتى فيما هو أقرب إليها وأحرى أن تتفوق به على الرجل وهو الرثاء ، وإذا كانوا يضربون المثل بالخنساء فانه ليس في ديوانها غير أبيات متفرقات في البكاء لاترتقي الى منزلة الشعر السيار ، إذ كله تكرير لمعنى واحد، ولا يصح أن يقال انه معنى من معاني القرحة والحيان . وقال العقاد : ان التصوير كالتمثيل ، والمرأة فيه غير مبدعة . ولم تعرف نابغة فيه خلقت صوراً من محض خيالها وتفكيرها، كما يتفق لنوابع المصورين من الرجال . وهكذا رأينا هذا الكاتب الكبير يجرد المرأة من مزايا الابداع والاجادة حتى في الصناعات الخاصة بها ، كالطهي والوشي ، والزينة والحياطة ، فزعم أن الرجل يبدعها فيها وينافسها ، ونحن نقول إن في عديد شاعرات الغرب قديماً وحديثاً ، وفي شاعرات العرب الموالي - روى شعرهن أبو تمام وأبو نواس ، او اللاتي ينشرن القريض بلغة الضاد او بلغات أجنبية ما ينقص رأي العقاد ، وفي الأدبيات المعاصرات من أحرزت جائزة نوبل التي ما أحسب الأستاذ العقاد يزهد فيها ، وفي النساء ممثلات كساره برفارد وراشيل ، ومصورات لا يحصى لهن تعداد ، أليس فيما أشرت إليه حجة بالغة عليه ؟ ونحن لم ننس بعد مراثيه لفقيده الأدب في الشرق الآتية « مى » فعداوة العقاد إذن كعداوة الحكيم ،

وكلاهما أديب أعزب (١) وعن النساء بمعزل، بل مادار لدى الأول بين يديه في صحن داره كما يذكر هو في كتابه «عالم السدود والقيود» غير خادمه الأمين، وما وقفت في مطبخه طاهية ولا جارية، بل لم تخطر في فناء بيته وحجراته امرأة يدعوها بأمر أولاده، والحكيم يعيش متجافياً عن المرأة وقد أثر مرة ألفة حمار كما قال عن نفسه في كتابه «حمار الحكيم». ويثور بالمرأة أديب آخر يمزح مزاحاً فيه حلاوة، وفيه مرارة، هو الأستاذ المازني الذي يتهم على المرأة ويستهنئ بها في كثير من قصصه ومقالاته، حتى أن زوجته وبناته لا يسمن من سخريته وزرايته

وهناك أدباء كانوا لا يؤثرون الجد كله، وإنما يقصدون إلى تسليية القارئ بأحاديث يختلقونها، أو ينفخون في حجوما الصغيرة حتى تبدو متضخمة بدنية كالذي كتبه الدكتور زكي مبارك عن المرأة حين قال: كان أبوه يجرب متانة خذائه الجديد برأس زوجته، وأن المرأة لا يليق بها إلا العنف والازدراء

وإني لأعجب لرأي علامة الشام الأستاذ محمد كرد علي (٢) في المرأة العربية كيف لانجده منصفاً لها حين كادت تقبل عليها وجوه الانصاف وطالما دعا إلى تعليمها ونهضتها، بل نراه ماضياً على ما يشبه رأي الأستاذ العقاد في أن المرأة لم تنبغ ولم تبدع في علم أو أدب ولا تحسن أمراً ولو كان من خصائصها الطبيعية كالزينة والطهي والحياطة

«١» نشرت مقالتي هذا بمجلة «الرسالة» قبل زواج الأستاذ الحكيم «٢» المذكرات

وأحسب هذه الضروب من الأدب المستهزي، العاث بالثناء
أصبح لدى معشر من أدباء العصر فكاهة الفن وطرفة التجديد، وما
المرأة في هذا الزمان إلا مستيقظة من سبات، ناهضة من خمول
وهوان، فعلام يحول أدباً نادرًا دون تحريرها ورقبها، ويباهون بالعداوة
لها والزراية عليها! وكان الأولى بهم أن يعالجوا مشاكلها ويتفقدوها
في مجتمعاتهم، ويجعلوا منها شريكاً في حياة كاملة طيبة، وما بال
هؤلاء الأعداء - وما جادت الأيام بأناداهم الا على هامات العصور
- يسخرون أقلامهم للهدم والتعطيم، وقد شرفها الله فأقسم بها،
وما كان مدادها، الا ليشرق من سواده نور الحق والخير على
بياض الأوراق؟

ليتهم سخروها لرعاية المرأة ورفعتها، ولسوف تأتي الأجيال
القابلة فينظر أهلها في آثار هؤلاء الناقمين على النساء، فيرون ان
بعضهم كانوا هازلين عابثين، مباهين بأدب لحنه وهم وخيال، وسداه
زهو وتحريف، ينتزعونه احياناً من الأساطير، ويرددونه في الأدب
الحديث باسم الفن والطرافة لقوم حرام عليهم الله والهزء، والعالم
جاد في تقويم المجتمع وبناء الأجيال، ولو كانوا يريدون للنساء
خيراً ونفعاً لأنشأوا هن ادباً يبصرهن بالخير والحق ويعصهن من
الزلل ويجمع قواهن في قوة الرجال، فما ينبغي ان يتخلفن عن
مسائرهم في ركب الحياة

يقول الراسخون في العلم والنافذون بأبصارهم الى عالم الغيب :

إن في حياة كل أديب امرأة كان لها أثر في نبوغه وإبداعه ، وهذا
 ما رددته توفيق الحكيم منذ سنين : « فمن افواهكم ندينكم » بأعداء
 المرأة ، لولا نساء اظلمت عليكم قلوبهن فلم تدخلوها ، لما كانت عداوتكم ،
 وإذا دعوتكم الى تحقير المرأة والبطش بها فانت وراء دعوتكم تشفياً
 وانتقاماً ، فقد يكون الدهر ابتلاكم بأهواء الحسان او بلوتم زيوف
 النساء ، فتجافيتم عن الخواص الصحاح ، وقد ثبت بالعيان والبرهان ،
 وفي شواهد التاريخ الأدبي والسياسي ان عداوة المفكرين للمرأة لم
 تكن لوجه الحق ، وقد قدمت في الكلام ما يحقق هذا الرأي من
 التحليل النفسي ، حين نورد أعمال الانسان الى نوازعه الخاصة ومن
 هاهنا ينبغي لنا أن نحاسب أعداء المرأة الحاسب العسير لأنهم قد
 أفسدوا المجتمع بأرائهم وأهوائهم ، وكان المجتمع مناسباً في كل حين
 حسب توجيه الفلاسفة والمفكرين ، وكم من ضحية دس لها السم فيما
 كانت تطعم من الدسم .

واذا بحثتم ايها المنصفون تاريخ السرائر والنفوس ، فلن تجدوا منذ
 حواء واحدة من النساء قد نصبت نفسها لعداوة الرجل ، ولو بحثتم
 عن أعداء النساء منذ آدم لوجدتم فيهم الكثير ، فخلوا عنكم ايها
 الأعداء ، وحسبك نسبها للمرأة وتجريحاً ، وعلام هذه البغضاء منكم
 والقطيعة ، فما العمر مديداً حتى يحتمل فيه الكدر والحصام ، ولا
 فيه صفاء يدوم لانسان .

محمد محرر النساء

كان مولد « محمد بن عبد الله » مواساة إلهية للشابة المفجوعة في فرحة عرسها بموت زوجها بعيداً عنها ، فكان ميلاد اليتيم عزاء لتلك الأم الاسيفة المتلهفة ، وجده المحزون

ولد « محمد » في أعقاب دهر عصيب ، لف الشرق والغرب في ظلمات الجهل والطغيان ، بين قوم أحبوا المرأة وغلوا في غيرتهم عليها ، وبين آخرين متطيرين ، خيل إليها لشيوع الفقر والسبأ عندهم ان المرأة سبب ذلة ومهانة لهم اذا فقدت حرمتها وكرامتها ، او كان السبي من نصيبها ، فوادت بعض القبائل ولائها ، وحرمت بعضها الانثى كل ميراث ، ولما طغى السفه والضلال كانت الاقدار تهيء من وراء الغيب عهداً جديداً ينبثق من الآفاق المقدسة ، لتغير مجرى العالم وتعطي الانسان على الأرض حريته المثلى ، على يد النبي الموعود

لقد نشأ « محمد » وشب في تلك البقعة التي كان فيها أمر المرأة حرجاً ، وكان من صنع الأقدار السماوية ان تتمازج حياته بحياة النساء منذ ابصر النور ، ففي طفولته تعهدته مرضعته « حليمة السعدية » بحضانة الرؤوم وكانت ترفقه على عادة العرب من عيون الحاسدين ، اذ كان محمد طفلاً لا كالأطفال ، ثم حضنته « بركة الحبشية » التي شهدت مولد

« ١ » الحكمة التي ألقها المؤلفة في حفل « معهد النجاح » الذي تنعده بالغباية والتوجيه منشئته السورية العظيمة السيدة ماجدة جزار قرينة المرئي العلامة الاستاذ هاشم بك الفصيح مدير التعليم الثانوي بسوريا

يتمه فسعدت بمحضاته ، واستروح في عطفها ورفقها روح أمه آمنة ،
فكان يقول عنها : هذه أمي بعد أمي ... هذه بقية أهلي

وامتلاً شباب محمد بحصافة الفكر ، وطهارة اليد واللسان ، فكان
ففي الفتيان ، له منهم نضارة العمر ، لكن احلامه ليست كأحلام
الشباب ، بل كانت رؤى النبوة الموعودة ، وبشرى البعث الجديد
كانت المرأة التي فتحت لمحمد باب المجد « خديجة بنت خويلد »
التي أكرمها الله بأن كانت خير زوجة لخير زوج ، مسّت قلبه بالحب
والاحسان ، وشدته بالأمل والايمان ، وكان بينهما من تفاوت السن
وتجاوب الروح ماجعل « محمداً » سعيداً برعاية المرأة التي فضله على
أفضل أهلها وعشيرتها ، فمضى في حياته الجديدة معتزلاً متملاً ، بين
زهادة وعبادة ، وبين تحفز وتأهب للانقاذ والتحرير ، حتى رف عليه
نور الحق وتلقى وحي السماء ، فلم يجد الا زوجته الحنون مفزعاً
لحشيشته ، فكفكفت من حيرته وعبرته ، وآمنت بنبوته ، قبل ان
يؤمن بها أقرب أهله وصحبه من الرجال والنساء

كان هذا الوحي الالهي ايداناً من الحق بزوال عهد بغيض
شقيت فيه الانسانية وضلت سواء السبيل ، فقد بعث محمد رحمة
للعالمين ، وأنزل عليه القرآن معجزة باقية وشريعة خالدة لكل عصر
ومصر ولكل فرد او جماعة من كل شعب وأمة ، فنادى للحرية
والمساواة والاخاء ، لهذه الأقانيم الثلاثة التي علم الناس معانيها ،
ودعاهم الى تحقيقها ، فكان سبباً لأمتين عريقتين تنازعنا منذ قرنين

شرف السبق الى اعلان حقوق الانسان، وقد فات الأمتين الفرنسية والأمريكية فيما صنعت الاولى بثورتها العظمى ، وفيما جددت الثانية في الحقوق الانسانية ، أن «محمداً» عليه السلام كان اسبق منها ومن «المنظمة الأممية في القرن العشرين» الى ابداع تلك الحقوق بألف عام ونيف ، فهي دستور عادل كامل ضمت أحكم المناهج الديمقراطية ، وأقوم المنازع الاشتراكية في عصرنا ، وفيها الدعوة الكبرى الى تحرير المرأة وإنصافها ، فقد أنزل الله فيها ما أنزل ، وقسم لها ما قسم ، ودلت سور القرآن على فضلها ، وما ينبغي لها من تقديم وتكريم

لقد رفع شأنها بنتاً وزوجاً وأما ، بعد أن كانت لانعد شيئاً كما قال عمر في الجاهلية ، فشرع لها ما لم تأت بمثله أحدث الشرائع والقوانين في ارقى الأمم الغابرة والمعاصرة في الشرق والغرب ، إذ ساوى بين الرجل وبينها في الحقوق والتكاليف ، الا فيما اقتضت الحاجة والضرورة ، فاذا رجعت كفة الرجل في شأن ، عوض على المرأة ما يوازيه فيما يوافقها من أمر آخر

و كأن محمداً حين جاء بهذا التشريع الرائع شاء ان يعلم الناس ان بناء الحياة لا يرفع الا بتعاون الجنسين ، وخصائص الفريقين ، فان الأمة التي تهمل المرأة وتجعلها لهواً ومتاعاً ، او تكون فيها مغולה الروح مسلوبة الحق والحرية هي أمة لا تستحق الحياة والبقاء في ذلك العصر المظلم الظالم ، كانت المرأة الغربية تعاني أشد مما

عانت المرأة العربية ، قبل عهد « محمد » إذ كانت لدى قومها رجساً
من عمل الشيطان ، فحرموا عليها الطيبات ، وصدوها عن الضحك
والحديث ، وغلوا في عدوانهم وامتهانهم ، فوضعوا على فمها قفلاً من
حديد ، وقد أمعنوا في ضربها كلما احسوها تتنفس الصعداء ، او ترفع
صوتها بالشكوى

وتفنن الرومان في حرمان المرأة وازدراؤها ، ثم قصروها في
عهد الترف والبطر على الغواية والفحشاء ، وكذلك فعل الغول
فكانت المرأة عندهم من سقط المتاع

وهل كان ثمة أفظع في الطغيان والجور على المرأة مما طلع به على
الناس مجمع « ما كون » بفرنسة في القرن السابع الميلاد ، إذ تنادت
هيئته للبحث في خلقه المرأة ، وهل هي انسان؟ غير ان بعض المؤتمرين
ترفقوا بها بعد جدل ونقاش ، فقرروا انها إنسان ، لكنها خلقت
عبدة للرجل !

فكانت رسالة محمد أعظم انقلاب شهده العالم لتحرير المرأة في
الانسانية جمعاء ، مما عجز عنه جبابرة الفكر ، ولم يخطر على بال
فلاسفة الاغريق ، ونوابغ الرومان في القانون والتشريع

ولم تكن هذه الحرية التي دعا اليها محمد طليقة شاردة ، بل كانت
قائمة على الحق والعلم والأخلاق التي إنما بعث ليتها ويجمعها ...
ولقد حررت هذه الحرية المثلى روح المرأة وبصرتها وهذبها ، فكانت
المرأة العربية تؤثر المنية على الدنية ، وتجوع الحرة ولا تأكل بشديها

وباعجبنا لهذا الشرع الجديد الذي حاط حرمة المرأة بالحصانة والأمانة ، وقد انبسط يد الله فوقها تبارك عليها وترعاها وتحميها في مستقبلها من بغتات المستبدين وانحراف المتقلبين

رأى الرسول عليه السلام أن العلم يعلم الحرية الصحيحة فجعل طلبه ابناً كان ، فريضة بالتساوي على الرجال والنساء ، فبأي المدارس تعلمت المرأة في عهد الرسول ، وفي العصور التي أقبلت بعده فتفتحت فيها العبقريّة النسائية ، وشعت على دنيا العرب بالمرح والجمال .

كانت مضارب العرب وبيوتهم ومجالسهم مغارس علم وأدب ، ومبعث وعي وتححر ، تعلمت المرأة فيها وتأدبت وتفقهت في الدين ، وكان النبي عليه السلام أول معلم لها علمها ما لم تكن تعلم حتى حفظت القرآن وروى الحديث ، كما روت الأشعار والأخبار وأملت بالطب والفلك ، والأنساب والآداب ، وعانت التشريع والسياسة ، فقد شرع الرسول لها في دستوره الحكيم ان تتعلم ماشاءت ، ولم يكرهها على ناحية من المعرفة دون ناحية ، ولم يقل لها : هذه تلائم طبيعتك وحاجتك ، وهذه تصرفك عن أنوثتك وأمومتك ، بل ترك لها الحرية في ان تتعلم ماشاءت ، فان المتعلمة الذكية تفيد من أية ناحية من نواحي المعرفة ، لاسيما إذا واثت فطرتها وحاجتها ، ولامت حياتها ووجهتها وقد اختص الرسول النساء بمجلس كان يختلف اليه حيناً بعد حين لتعليم المرأة وتبصيرها ، حتى اجاز لعائشة ام المؤمنين تلميذته الأولى أن تكون بعد حين مرجع الثقات والأئمة ، من الخلفاء

والفقهاء، وقد منحها ثقة هي أغلى وأسمى من كل شهادة على مصطلح
عصرنا، حين قال لصحبه وذويه: خذوا نصف دينكم عن هذه الخيلاء...
وتمثلت، معاني الحرية التي أرادها الرسول للمرأة في كثير من مظاهر
الحياة والمعاملات، تمثلت في إيمانها برسائله ودعوته، وفي تأييدها
لجهاده وجهاد المؤمنين، ففي حومة النضال والقتال ومن خلف
الزخوف والصفوف، كانت المرآة العربية تسير مع الرجل، تثير
الحمة والاباء، وترقأ الدماء، وتروي الظماء، وقد تضرب العدو
بسيفها حتى تلقى حنقها شهيدة موعودة بأجر المجاهدين، فلم يقل محمد
للمستبسلة المناضلة: إلزمي بيتك، وتحلفي للزوج والولد، وحسبك
ان نعكفي على مغزل ومطبخ... وهو القائل لمن سأله عن جهاد
الرجل، فأجابها بأن هذا الجهاد ليس بزائده مثقال حبة عن المجاهدة
في الحرب او في السلم لوجه الله، وقد امتلأت صفحات التاريخ
بأنبياء المجاهدات، من عائشة بنت الصديق، وأم سلمة، وأم سليم،
ورفيدة الاسمية، ونسبية المازنية، وخولة الكندية وغيرهن
كثيرات، بل ان محمداً لم يتجهن للمرأة حين أجارت أسيرين حتمها
« أم هانيء » بنت عمه أي طالب من أخيها علي كرم الله وجهه،
وقد عارض صحبه حماية أم هانيء للأسيرين المستجيرين بها، غير ان
الرسول الأعظم رد هذه المعارضة قائلاً:
دعوا أم هانيء، فنحن قد أجرنا من أجارت، وأمنا من أمنت،
وان لها حقاً فيما فعلت...

وفي البيعة ، كانت المرأة تبايعه أسوة بالرجل ، ولم يكن يأنف من لقاءها أو استماع شكاتها ، إذا كانت مغبونة أو معذبة ، فإذا سمع حاجتها وصراحتها ، تلقت نحو صحبه يبدي البشاشة والرضا وهل ثمة حرية شرعها الاسلام للمرأة ادل على تحررها ، من احترام رأيها في اختيار زوجها ، لقد أبى الرسول على الرجل ان يسوم المرأة في نفسها ، او ينازعها حقها في الاختيار ، فليس لأحد ان يغضبها في الزواج ولو كان محمد نفسه ، فهذي بنت عمه أم هاني مات عنها زوجها ، فخطبها الرسول وردته فائلة : لأنت أحب إلي من سمعي وبصري ، لكن بني صغار ، وحق الزوج كبير ، فأخشى ان أقبلت على زوجي ان اضيع شأن الأولاد ، وان أقبلت عليهم أخشى ان اضيع حق الزوج ، فلم يغضب الرسول ، بل قال فيها وفي امثالها : خير نساء ركن الابل نساء قريش ، أحناهن على ولد في صغره ، وأرعاهن لزوج في ذات يده

ولم يحظر على المرأة حضور المجتمعات العامة التي يعقدها الرجال للشورى والنظر في شؤون الحياة وخدمة الأمة ، إذ كانت المرأة تبادر الى شهود تلك المجتمعات أيام محررها ومعلم الحرية وشارع العدالة الاجتماعية ، ثم في عهد خلفائه الراشدين حتى المتشددين المتحرجين منهم ، ووبح عمر حين بغتته تلك المرأة الجريئة الصريحة وهو على منبره ، يبصر قومه في أمور الدين والدنيا ، وحين انتهى الى طرف من التشريع النسائي ، وقفت امرأة في الحضور تنقد عمر الخليفة

العادل ، وتقوم ما عوج من رأيه ، فلم يغضب عمر وإنما قال :
أصاب امرأة وأخطأ عمر ...

وإن كان في قوله امرأة ، كثير من الغضاظة على النساء !

ومن هذه المساواة التي نادى لها الرسول كفاة المرأة الرشيدة
في شؤونها المدنية دون استئذان من زوجها أو ولي أمرها ، مما لم
تخط به المرأة الغربية في أرقى الأمم المعاصرة

وإذا كانت المرأة قد تساوت والرجل في حق البيعة ، فإن نقلة
من هاتيك العصور الى يومنا هذا ، تفتح امام المرأة آفاقاً أغلقتها
الرجل في وجهها ظلماً واستبداداً ، حين أهمل ما أراد الشرع لها ، فلم
يطبقه على وجه الحقيقة والعدالة ، وترتفع الاصوات النسوية في الشرق
والغرب بالتماس التسوية في الحقوق والتكاليف ، ويردد صداها انصار
المرأة حتى يستجاب بعضها أو كلها حسب النظم الاجتماعية والأوضاع
السياسية ، ويتاح للسوريات المتعلقات وهن في عهد تحرر واستقلال
ان يأخذن حق الانتخاب ، وبقيت لهن حقوق كثيرة لا يزلن دؤوبات
لأخذها ، غير متمردات على الفطرة ، ولا حائذات عن الغاية المثلى
ويفتح مجال الحرية المرجوة أمام الشقيقات العربيات ، اللاتي
طلما أهن بأحرار الرجال الى نصرة المرأة في حقوقها المهضومة ،
وبوادر الأمل تلوح اليوم للنسويات واللبنانيات يؤبدن العلم والقانون
ولئن أقر الشرع حقوق المرأة واعتترف الرجل بها في صدر
الاسلام وبعده ، على الرغم مما في طبعه من الأثرة والاستبداد ، فإن

هذه الحقوق بقيت في كثير من العصور حتى يومنا هذا مطوية
كلقوة السكامة التي تنتظر الارادة والانصاف ، فهي موجودة
مفقودة ، موجودة في صميم الشرع وفيما أثر عن الرسول عليه السلام ،
ومفقودة لان الرجل المشرع اهملها وهضمها ليستأثر بها وحده ،
متبججاً بالحرية والمساواة اللتين جعلهما الخالق من اجل الجنسين ،
فالمرأة العربية اليوم لاتطالب بحق التسوية المطلقة ، وانما تبحث عن هذه
الحقوق المفقودة لكي يضعها المشرع المنصف موضع التنفيذ والتطبيق ،
وفاقاً للمصلحة العامة واستجابة لروح العصر وضرورة الحاجة

فلولا « محمد » الذي رفع مشعل التحرير والخلاص في ظلمات
الانسانية لينير للرجال والنساء على السواء لبقيت المرأة متلفعة في
غيبوبتها الأبدية

فاذا ذكرت النساء « محمداً » في مولده وهجرته ، وفي رسالته
ودعوته ، فليذكرن المحرر الأول ، الذي عطف على المرأة وأنصفها
من اجل كرامتها الانسانية ومكانتها الاجتماعية ، لندحماها من كل
ضيم وحرمان ، وترك من بعده جناح المودة والرحمة منبسطة على
دنياهها حتى إذا كان اليوم الموعود رجاءته الصفوف خلف الصفوف ،
بالزحمة والزحوف ، وجد نساء لا يحصيهن عدد غير الله ، هاتفات باسمه
في المحشر ، متشوفات الى رؤية المنقذ الحبيب

نهضة المرأة السورية

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، جلا الترك عن
هين بلاد الشام ، فهب السوريون يفركون اعينهم مشدوهين ،
ويتنفسون الصعداء مستروحين ، وكأنهم نهضوا من سبات ، او
ردوا الى الحياة بغتة او بعد غيبوبة ، فقد انجاب عن بلادهم ظل
العثمانيين ، وكان طويلا ثقيلا ، عانوا في خلاله الحرمان والهوان ،
وظلوا سادرين في امانيتهم ، مكفوفين عن مطامحهم وحاجاتهم لا يجدون
متنسأً للحربة والخلاص .

وكانت المرأة السورية تشارك الرجل في همومه ، وتتمرس من
وراء حجابها بالخطوب والآفات ، وكان صوت واحدة او اثنتين من
الأنوفات الغضاب ، يضيع في غمرات الحرب ، وأنات التظلم والاجحاف ،
وتد حجبت صلصلة الوعيد والتهديد جهود النساء ، فلم تظهر في غير
النجدة والاسعاف ، غير ان الوعي الوطني اخذ يدب في عالم المرأة
ويتسرب الى شعورها ويكشف عنها حجاب الخمول والاهمال .

فلما دالت الأيام ، وتفتحت الأعين في سورية على عالم جديد
في حياته وثقافته ، ترددت الصيحات لرفع مستوى المرأة ، وتعليم
الفتاة ، وكانت الثقافة النسوية يومذاك زهيدة محدودة ، والمتعلمات
معدودات ، يرميهن المتزمتون بالنظر الشر ، ويستصرخون الدين
خروج النساء على ما ألفوا من تقاليد وعادات . ومن كان راضياً

عن وعي المرأة ويقظتها ، والتماسها اسباب الثقافة والاصلاح ، فانه لم يتحيز الى دعوتها ، او يتنكر للمتشددين الماطيرين ، وانما وقف من بعيد يرتقب ويتطلع ، ويرصد الحركة الجديدة ، فبقيت المرأة السورية تناشد ونجاهد ، وتدعو الى التحرر والتبصر ، وتفهم التبعات وإعداد العدة للمستقبل المنشود ، على ان اليقظة الاجتماعية في ارجاء البلاد السورية ، كانت تردد الدعوة لرفع شأن المرأة وتعليمها فاستجاب الناس لتلك الدعوة على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، ورفدتها الحكومة ، فأسست للبنات مدارس ثانوية ودوراً للمعلمات ، كانت فيها الفتاة السورية اسبق من أختها اللبنانية الى إحراز البكالورية الرسمية والثقافة الوطنية ، كما أوفدت وزارة المعارف السورية - في بعثات علمية - بضع فتيات الى الغرب ثم الى مصر للدراسة الجامعية والعالية ، وكانت اسبق المبعوثات هي الرياضية المرموقة السيدة بشرى قدسي مديرة دار المعلمات بدمشق وكانت الجامعة السورية تقوم في تلك الردهة بتدريس الطب والحقوق والصيدلة ، فأقبلت عليها الفتيات السوريات أسوة بالفتيان ، ولقين من الأساتذة عطفاً وتشجيعاً ، وكان القوم بين عجب واعجاب حين خرجت جامعة دمشق الطبية الأولى لوريس ماهر ، ثم طبيبتين من أسرة عريقة هما السيدة منيرة العظم خياط والآنسة بولانته العظم ، كما خرجت من الحقوقيات عدداً كبيراً ، كان يزداد عاماً بعد عام ، على ان اول فتاة سورية حملت

شهادة الحقوق في فاتحة هذه النهضة هي السيدة الموهوبة بوران طرزي التي مارست المحاماة ودلت على نبوغها واقتدارها في عملها وفي ثقافتها الرفيعة

وكانت تقاسمها هذا السبق السيدة المفكرة فاطمة مراد كريمة العلامة الشيخ سعيد مراد استاذ المجلة العدلية إبن تأسيس الجامعة السورية وفي طليعة الحريجات بالحقوق منذ عهد قريب فتاة نابغة رصينة ، كانت أمنيتها المحبة العكوف على العلم الطبيعي وتجارب المختبر ، وكأن بها ظمأ الى كل معرفة ، فقد جمعت بين الثقافة العلمية والثقافة الادبية والقانونية تلك هي الآنسة جهان الموصلي ، ومن زميلاتها المثقفات الحضيفات الآنسة بديعة أورفلي ، وكلتا الآنستين تمرسن بالتعليم والادارة والتوجيه السديد في الحركة النسوية الراهنة .

ولما اطل البلاد السورية عهد جديد تنسم فيه أهلوها الحرية والاستقلال ، اتسع نطاق التعليم بجميع الوانه وفنونه ، واتسعت بقعة الجامعة السورية ، فتنوعت فيها الدراسة العليا والجامعية ، إذ أسست فيها كليتان جديدتان إحداهما للآداب والثانية للعلوم ، والى جانبها معهد عال للمعلمين والمعلمات ، وقد وجدت الفتاة السورية بغيها في هذا المعهد وتينك الكليتين ، كما ازداد اقبال الفتيات على كليتي الطب والحقوق ، حتى جاوز في كل منها المائة ، على ان هذا الاقبال على درس الحقوق ، لم يكن من اجل ممارسة المحاماة لدى

أكثر الفتيات ، بل كان وسيلة لغاية مادية تتعلق بالوظيفة ، وقد صرح بهذا الرأي وزير المعارف الاسبق ، أديب سورية ونابغة الشباب الدكتور منير العجلاني

أما نهضة الادب النسائي في سورية فكانت سبابة لنهضة التعليم ، وكانت مقصورة على افراد قلائل ، وطالما كان امثال هؤلاء في كل امة يمتازون باستعداد خاص ومواهب ذاتية ، قبل ان يكون في الأمة تقدير فردي او جماعي ، وفي سورية كما في غيرها من بلاد العرب سيدات وفتيات هن مثقفات ومتأديات ولكن ، بغير لغتهن ولقد أملت بعض السوريات بأداب غربية الى جانب ثقافتهن العربية فتتبعن الحركة الفكرية في العالم وأقمن في ميزان الاعتدال ، مستمسكات بالطابع الاصيل والعروبة المثلى كالآنسة وجيهة جزار وشقيقته السيدة ماجدة جزار فصيح والسيدة إنعام عظم داغستاني والطبيبة منيرة عظم وفي الوعي الفني استجابت المرأة لفطرتها وطبيعتها ، فشدت طرفاً من الفنون التي أتيحت لها ، فمارستها في بيتها ، غير انها لم تظهر فيها عبقرية او مبدعة كما ظهرت المرأة المصرية واللبنانية ، ولو اننا في سورية نعني بالثقافة الموسيقية والتصويرية ، لكان للموهوبات السوريات شأن اي شأن في هذا المضمار

وقد لمعت في فاتحة النهضة النسوية كرائم الواعبات الراقصات من الأسر الرفيعة ، وكانت زعيمة الحركة الاولى السيدة العظيمة نازك عابد ، فقد سعت الى الوعي النسوي الجديد وانشأت مجلتها

« نور الفيحاء » في عهد « العروس » وأسست مع صواحبها مدرسة لبنات الشهداء ، شهداء العدوان التركي ، وقامت في ذلك الحين بجهود باقية وطموح مرموق

وقد يكون « النادي الأدبي النسائي » في دمشق اسبق جمعياتنا الى الوجود فتكون الحركة الأدبية النسائية في بلاد الشام مدينة الى نشاطه الأول والى جهود هيئته ورئاسة الجمعية هي الآنسة الفضلى سارة مشاقفة ومنذ عشر سنوات او تزيد أنشأت المربية الكبيرة السيدة نديمة المنقاري مجلتها « المرأة » في حماة ، بلد العاصي والنواعير ، ثم احتجبت مدة وعادت الى الصدور في دمشق ، فظهرت بحلة طريفة ، لنكون صورة للنهضة النسوية الحديثة ، غير انها فوجئت بالتوقف ، وليس هذا بمستغرب ، لان المجلات الفنية والصحف الادبية لاتعيش طويلا في بلاد الشام

وتهتاجني الذكرى الحزينة ، فأنوه بأثر المفكرة المتحررة السيدة مسرة كيلاني شهاب ، إذ كانت من الرائدات السابقات اللاتي أسهمن في النهضة التعليمية والاجتماعية بسورية

وما تذكر حماة حتى يلمع بالخاطر شعاع حمص الذي اطل على سورية وانجبت نسوة طلعن بالنور والخير والمعرفة وهن في حجاب الامس وظلال السيوت ، منهن النبيلة المثقفة « عدوية الأتاسي » وسواها من ربات الفضل المعاصرات اللاتي ما يزال نشاطهن محصوراً في آفاق حمص الجميلة

كل هذا من نهضة المرأة كان يمضي على رسله ، والشعب السوري في غلاب ونضال مع الأجنبي الغاصب . بصرعان وبتنازعان ، وكان عبء المناوئة والطغيان قد ارسى على كواهل الرجال ، وضاق به النساء ، فهبن غاضبات متأيات ، يشددن عزم الأبطال ، وقد فعلن أفاعيلهم في الثورة السورية ، فكن اشبه بنساء الحرب الطروادية .

وظهرت الجمعيات النسائية في السوانح الوطنية والقومية ، وكانت تضم نخبة طيبة من كرائم النسوة وفضليات الفتيات . غير ان هذه الجمعيات كانت متقاربة الخطط والغايات ، واعضاؤها هن أنفسهن في جمعية او اكثر ، وقد دعين لسماع محاضرات علمية وادبية ، غير ان المحاضرين كانوا رجالا ، فارتأى الجمع العلمي العربي بدمشق ان يدعو بعض المدرسات والمثقفات لالقاء المحاضرات على النساء

وقد استطاعت بعض هذه الجمعيات ان تمثل المرأة السورية في المؤتمرات النسائية التي عقدت بمصر ودمشق ولبنان ، بيد ان هذا التمثيل لم يدرك رضا الناس ، لانه لم يمثل المرأة السورية على حقيقتها ولم يوحد كلمتها . بل كان مرتجلاً او مفروضاً ولو لم يكن في هذه المؤتمرات من خير وفائدة سوى التعارف والتقابل بين الشرقيات والغربيات وتداول الرأي بين العربيات على اختلاف الديار والامصار لكفاه فخراً وغير خاف على الملاء الواعي ان العوامل في الجمعيات النسوية يختلفن في الظاهر والباطن ، ففهن المخلصات في جهودهن لوجه الله والوطن ، ومنهن المستغلات لكل بادرة وسافحة ، والمصطنعات لكل

عهد واتجاه ، على ان اكثر هذه الجمعيات جهداً ومنتوجاً هي جمعية «نقطة الحليب» التي تنهض بناحية من نواحي البر والاسعاف لايمنض بها سواها، فتوعى الأطفال الفقراء لاسيما الرضع منهم، فتمنحهم المقادير الكافية من اللبن والغذاء ويتعهدهم الاطباء في دار الجمعية بالمعانة والعلاج ورئيسة هذه الجمعية هي الزعيمة الجليلة السيدة زهراء العابد ، وفي طليعة القائمات بهذه المهمة الانسانية الانسة الممتازة فاطمة دياب

وقد أسست جمعية « خريجات دور المعلمات » داراً لكفالة بنات الشهداء ، شهداء العدوان الفرنسي الأخير ، تعاهن فئة مثقفة من المدرسات البارئات ، لا يتركن سانحة من السوانح في بذل الجهود للعناية بهؤلاء اليتامى ، وتوفير المواساة والترفيه لهن ، وتقوم هذه الجمعية النسوية من حين لآخر ، بمحاضرات علمية وادبية تدعو إليها طائفة من المثقفين والمثقفات ، ورئيسة الجمعية هي المربية الكبيرة المتحررة السيدة منيرة علي الحائري ، من رائدات الفكر النسوي بسورية .

والجمعية الهلال الأحمر فروع نسوية في انحاء البلاد تقوم بمجهود كبير في مكافحة كل وباء وبلاء ، وقد ظهر نشاط السيدات فيها إذ كن مثلاً للتضحية وتحقيق النظام والاخلاص

وفي دمشق ، تنادت منذ سنوات بعض المثقفات والمعلمات من ذوات الفكر والتقدمة ، الى تأسيس ندوة للمرأة ، وضمن لها أهدافاً جديدة ، لم تستهدفها بقية الجمعيات النسوية فكانت الندوة بخطاها واتجاهها مشبهة عندي « نادي سيدات القاهرة » بصر ، ولا تزال

هذه الجمعية الثقافية ساعية الى إنشاء مكتبتها وإقامة محاضراتها واستقبال الزائرات العالميات اللاتي يفدن من الشرق والغرب الى دمشق، فضلاً عما تقوم به الندوة من برامج بالموهوبات الفقيرات من الطالبات إذ نعدّهن في كل عام ما تيسر من الكساء وأدوات الدرس والتحصيل وهيئة الندوة تضم نخبة ممتازة من زهرات المجتمع السوري فيهن السيدات إلفة عمر باشا إدلي، وفلك دياب دسوقي، وبلقيس وريمة كرد علي ونعمة دياب، وغيرهن من الفضليات ورئيسة الندوة الآنسة جهان موصلي ولا تقتصر هذه النهضة على دمشق فحسب، ففي كل بلد سوري يشع الفكر النسوي الجديد، وتتنافس السيدات والفتيات في خدمة الثقافة والانسانية، ففي حلب الشهباء تمضي بصمت وتواضع جمعية المشاريع الخيرية النسائية الى غايتها النبيلة في خدمة المجتمع وإسعاف المرضى والمساكين والوالدات، ومن ألمع العاملات في هذه الجمعية وفي كل حركة فكرية ووطنية السيدة أنيسة حميد باشا من ذوات المروءة والادب في حلب

والمرأة السورية في طویل جهادها ومختلف عهودها لم تعرف من الرجال نصيراً وقف فله على رعايتها والدود عن حقها ونهضتها، كما اتفق للمرأة المصرية والعراقية واللبنانية، ففي بلاد العرب اليوم وبالأمس القريب والبعيد، رجال دعوا بأقلامهم وألسنتهم الى تحرير المرأة وتقدير رسالتها وتأييد قضيتها، على ان الانصاف يقتضي ان أئوه بفضل الكتاب المجدد الاستاذ سامي الكيالبي بحلب الذي ملأ

صفحات من مجلته «الحديث» بآثار المرأة ، وقد لقيت منه الأدبيات
الشرقيات تشجيعاً وتعزيراً ، فهو حفي بمواهب المرأة العربية عامة
والسورية خاصة ، متتبع لجهودها ومساعدتها ، ويرحى من الجيل
الصاعد ان يكون خير نصير للسوريات ، في هذا العهد التقدمي الطامح
كذلك كان تقدم المرأة السورية في وعيها ورقبها ، ولقد سائر
هذا التقدم الأيام التي مرت بها ، ولبي حاجة الجيل ، وصار في عداد
الجمعيات النسائية عدد موفور من المثقفات والمعلمات ، بعد ان كانت
مقصورة على ربّات الوجاهة والثراء ، غير ان نشاطهن بقي محدوداً
او محصوراً في نطاق ضيق ، وان كن يشعن شعوراً عميقاً بضرورة
التجدد والتزود لتحقيق غاية فكرية او اجتماعية ، والتشوف الى
آفاق جديدة تطمح اليها المرأة في نهضتها . ولعل السبب في هذا
التقصير ان أثر الرجل ماتزال تأبى على المرأة ان تخرج من عزلتها ،
فاذا قبض لها ان تخرج مسهمة في بعض مرافق الحياة راح الرجل
المتعصب او المتزمت يصف منازلها الجديدة متهماً او متهمكماً . ولو
انه شجعها مخلصاً ، وبصرها بالخير ناصحاً ، لرأى من سعيها الصامت
الصادق ، ما يحمله على إقرار حقها ، والاعتراف باقتدارها على الخدمة العامة
وانها لبادرة حميدة من وزارة الاقتصاد الوطني في سورية ان
تعين ثلاث فتيات من الخائزات لشهادة الحقوق في مراقبة العمليات
بالمعامل والمصانع ونظام العمل الجديد ، وهذه الوظائف كانت وقفاً
على الرجال ، وليس للفتاة السورية إلا ان تثبت الكفاية والحصافة

فما يعهد به إليها ، لتبرهن للرجل على أنها تستطيع القيام بالأعمال التي تدخل في خصائصها وطاقاتها ولا تخرج على طبيعتها ورسالتها
لقد شمل التقدم حياة المرأة السورية ، في بيتها ومجالسها ، في زيارتها وحديثها ، ولم تبق قعيدة دارها لا تخرج منها إلا إلى قبرها ، فقد صارت تغترب في سبيل الثقافة والمعرفة ، وتتأرجح بغيرها من نساء الشرق والغرب ، فأفادت من الاعترا ب والتأرجح ، إفادة مشوبة بالبهرج والتسكلف ، ولو شاءت لآثرت التقليد والتجديد فيما يبقى عليها طابعها الأصيل وشعار بلادها ، على أن المحنة التي أمت بفلسطين ألهمت شعور المرأة السورية متعلمة وأمية ، فكانت غضبتها للحق تعدل غصبة الرجل ، وسعيها إلى التطوع والتبرع لا يقل عما بذل الرجل من المجهود في هذه المحنة ، ولعل ذلك يعود إلى عروبتهما وحماسته ونهضتها الحميدة ، فتمضي قدماً إلى أهدافها غير مترددة ولا منحرفة ، حتى تدرك المثل العليا في دهر العرب الحديث .

التقدم المرموق

نحتاجنا الذكريات ، وبثيونا ماضيها وأثارها ، فبقاع الارض ومعالم الوطن وصداقة الناس ، كل ذلك محسوب علينا ، مكتوب في خواطرنا وصدورنا ، وكل امرئ في هذه الدنيا ، يحمل كتاب الذكريات وبدعوه الحزن او الفرح ، والبعد او القرب ، الى ان ينشر بين يديه من حين الى حين صفحات من هذا الكتاب ، فيعيد حياته سيرتها الاولى .

كذلك سأنى ، ففي هذه اللحظات السعيدة اتناول هذا الكتاب السحري العجيب ، الذي لا يراه غيري ، ولا يقرأ سطره سواي ، فتنبعث بيروت في ماضي القريب والبعيد ، وأرجع بالسنوات القهقري فأراني من ههنا اطل على مشارف الحمى ، واتطلع الى البحر والجبل ، فكل بقعة من هذه البقاع حبيب الى قلبي ، لان فيها منبتي ونشأتي ، وعليها تفتح الفكر وجدّ الجهاد ، فانا اليوم حين اسرح النظر في هذه الوجوه الغر من الطالبات ، ارى الصور المكرورة المعادة ، فيسجل الى اني ارى تلك الاسراب من المميزاتي ، وذلك

« ١ » الكلمة التي ألقتها المؤلفة في مهرجان كلية البنات للمقاصد الاسلامية في بيروت سنة ١٩٤٩ والكلية أكبر معهد وطني للفتيات تديره اليوم المربية الكبيرة الأناسة زاهية دوغان بما عرفت من أدب وتقوى ، ووعي ثقافي وقومي ، وقد كان من مآثر الفضل في هذا المعهد العظيم أن تولت تأسيسه وإدارته السابقة السيدة العظيمة يسر فاخوري نقاش

الموكب من زميلاتي، وإذا كان الخلود حليف العلم كما يقول الحكماء
وكانت المدرسة دارة لهذا التخليد، يضي ربانها واساتيدها ومعلمتها،
وتتجدد الازاهير في حديقتها كما تتجدد فيها مناهج التدريس والوان
الثقافة، فان شيئاً واحداً يبقى خالداً على الايام، متصل الاول
بالآخر، والجميع يتعاقبون في خدمته وبذل العبر والفكر في رعايته
ذلك هو التنمية، فهي الخالدة التي لا تنقطع، والمتجددة التي لا تنجلي
ومن اجلها فام كل ذلك من معاهد ومناهج، واساتيد ومدرسات.
وكذلك فاني اليوم ارى الجديد في القديم، والقديم في الجديد،
وهذا برهان اكيد على ان الفتاة اللبنانية ماضية في سبيلها، ساعية
الى اهدافها بشوق وايمان، وكيف لا يواتيها المراد وقد وهب الله
لها طبيعة ساحرة، وجبلا مهفف النسبات طيب العبير، مفجر الينابيع
ينسدل سفحه الأخضر الى بحر ابيض يقذف بالخير والطموح، وإذا
كان هذا الجبل الملهم الاشم ينفج بالشعر والعطر، والعذوبة والجمال،
فليس بمستكثر عليه ان تكون فتاته ممتعة بالموهبة والذكاء،
فيافتياتي العزيزات اللواتي يقام من اجلكن هذا الحفل الكريم،
انتن سفيرات المستقبل، والثمرات بعد الزهرات، وما اذن اليوم
الا واقفات على عتبة المجتمع، وغدا تندفعن اسرابا بعد اسراب
وافواجا بعد افواج، الى حياة جديدة وآفاق مترامية، فتغمركن
الايام بشؤونها وشجونها، وحينئذ يعوزكن العلم الذي تلقينته في
هذا المعهد، وتفزعن مع هذا العلم الى السلاح الذي زودتن به

مربيات تكن الفضليات ، فهو وحده سيدفع عنكن مكاره الحياة ،
واذ كن ابدافضل هذا المعهد فان له في اغناقنا دنيا لا يوردي الا
بالحفاظ على رسالته وتعاليمه ، وان له لاثرا كبيرا في تقدم النهضة
النسائية في هذا البلد الطيب ، اذ كان المصنع العلمي الدؤوب ، الذي
قدم وما يزال يقدم في كل عام ، نخبة من فتيات الجبل هن ازاهير
المجتمع النسائي الجديد ، يصفين عليه من نقاء السمعة وحميد الصيت
عطرا وفخرا .

وكانت يد الله مع الذين يرعون هذا المعهد النموذجي ، من رجال
الخير والمعرفة في جمعية المقاصد ، حتى كانت المقاصد الاسلامية ، عالما
علميا وانسانيا ، له مكانته السامية في قلب لبنان ودنيا العرب .

وما مرحلة التعليم التي اجتازتها الطالبات المنتهيات من حلقة
الدراسة الا اول الطريق ، فمن أغلقت منكن يافتياني العزيزات
كتابها بعد المدرسة ، واكتفت بما تعلمت فيها ، ثم تصدت للسعي
والظهور من غير زاد فكري وثقافي ، كانت كالمجاهدة بدون سلاح
وكانني بالسنين قد غبرت بكن قدما ، فاذا انتن امهات وسيدات
بيوت ، وكواكب مجتمع ، واذا بواحدة منكن او اكثر تشهد
مثل هذا الحفل الجميل ، فتعبد الذكري الى نفسها حياتها الماضية يوم
كانت تلميذة او معلمة ، مثما اعيد الساعة هذه الذكري هزة وسنين
فليت شعري وقد وقَّيَّت الطالبات حق الذكريات ، فقيم بهتاج
الخطر من اجل الرائدات المجاهدات .

لقد شقت المرأة اللبنانية طريقها الى الحياة العزيزة النافعة بعلم وبصيرة ، حتى شعت عبقريتها على آفاق النهضة النسائية العالمية فكما كان الفينيقيون في قديم الزمان ، يشقون عباب الماء الى العالم البعيد حتى ملأوا الدنيا القديمة بآثارهم ونبوغهم ، كذلك حاضرم المرموق ، والمرأة المثقفة فيه برهان وعنوان ، فهي تحت كل كوكب وفي كل افق من آفاق الشرق والغرب ، متحررة العقل والروح ، ويكاد شعاعها يلمح مع كل شارق .

واذا عدنا الى سجل النهضة النسوية العربية وجدنا المرأة اللبنانية كانت اول من صرخت في وجوه الحكام البائدين ، منذ الحرب العالمية الاولى : اعطونا الحرية

ومن بين الدور والقصور ، برزت القافلة النسائية البيروتية ، التي دعت الى الحق والنور بايمان واحسان ، ثم بقيت تكافح وتنافح وتسعى في الملمات القومية والوطنية ، وفي زحمت الحوادث (١) إلى مشاركة الرجال فيما تستطيع عليه من اعباء وتبعات ، حتى كانت الامس القريب فكانت اللبنانية اول امرأة عربية طالبت بحقوقها

« ١ » من الجدير بالذكر في هذا الصدد أن أنوه بفضل طائفة من رجال الأمة الاحرار الذين دعو الى تعليم المرأة ورفع شأنها ، وفي طليعتهم أناس فقدهم لبنان لكنهم خالدون بالذكر والأثر ، منهم محمد مختار يهيم ، ومحمد الفاخوري ، وأنيس الشيع وسليم علي سلام والد الأفذاذ وفيهم كريمة الأدبية عبدة سلام .

ومن الأنصار الذين يدأبون لخير المرأة وكرامتها الصحافي الكبير محمد الباقرو والعلامة محمد جميل يهيم ، والاستاذ جورج باز ، والنصوليان العبقريان محي الدين وأنيس .

الاجتماعية والسياسية ، وناقشتها في ذلك حكومتها ، وكان اخذ
وكان رد ، والحقوق تؤخذ ولا توهب ، فهي تسعى الى رفع مستواها
الاجتماعي والفكري حتى يتحقق لها ما تستطيع عليه ، ويليق بها في
الحياة العامة ، وقد اثبتت بوعيتها وثقافتها تقدما واسعا في مجال
نهضتها ، وهي في كل يوم حانية على الانسانية المعذبة تخفف عنها
آلامها وهمومها ، وفي محنة فلسطين كانت لبوءة مزججة تخرج وتجاهد
في سبيل الارض المقدسة التي عدا عليها الغدر والطغيان وشرذم اهلها
ظلموا وهم الوف ، وفي مضمار العلم والثقافة كانت اللبنانية مجلبة
متفوقة ، فمنها المعلمة والمحامية ، والطبيبة والادبية ، وهل ننسى أن
اول صحافية في شرقنا العربي ، هي من هذا الأفق الطلق الجميل
غير اني لانساق في زهو واعتزاز لا يجدوى عنده ، فان المرأة
اللبنانية لم تقنع بما ادركت من مجد وتقدم ، اذ لا يزال امامها
اشواط خلف اشواط ، واشواك بعد اشواك ، وكلما عظم المطلوب
قل المساعد كما قال شاعرنا المتنبى ، فالتبعات والتكاليف متعددة
متجددة ، والدرب مديد ، فعليها اذن أن تقدر مهيتها ، وان تؤدي
رسالتها على احسن وجه ، واقوم سبيل ، وان تقهر معنى
« المسؤولية » في نهضتها ، فهي تمضي في زحام وغلاب ويكاد منكبها
يضطك بمنالك الرجال ، وفيهم الشامتون والواقفون بالمرصاد ، بمن
لا يروهم ان تتقدم المرأة وان تعمل على مكانتها وكرامتها ، فكأنهم
يريدون الحياة لهم وحدهم ، وما فيها من خير ونعمة ، ليحبسون في

البيوت ، ويحصرونا في المطابخ ، وهذا من شأننا ولا تثريب علينا فيه ، لكن لنا الحق نحن النساء من امهات وفتيات ، وذوات بيوت ومجاهدات ، ان نطل على العالم وان نفتح الابواب لنمضي في موكب الزمان .

لقد مضى العهد الذي كانت تفرض فيه علينا الاقامة الجبرية ، واصبح من حقوقنا ان نتنفس كما يتنفس الرجال ، فالهواء للجميع والشمس للجميع ، لكن علينا ان نثبت اقتدارنا على احتمال ماتأاتي به عواصف الريح ولفحات الشمس ، وان ندل بالعمل الصالح على كفايتنا ومواهبنا ، واننا جديرات بحق الحياة كجدارة الرجال سواء بسواء ، وعند ذلك لايقف في سبيلنا احد من المتصلبين والمتعصبين ، مهما غلا في أثره وعناده .

وطريقنا الى هذا المجد النسوي المنشود، ان نكون خير الامهات والزوجات ، واخلص المديرات والمربيات ، للبيوت والابناء وأوفى المجاهدات للعروبة والوطن ، على ان لانهمج على هذه النهضة هجوم الجياح على القصاع ، فما كل امرأة ينبغي ان تكون زعيمة او معاملة ، ولا كل سيدة يجب ان تصير طبيبة او موظفة ، فكل من النساء ميسرة لما خلقت له من امومة وزعامة ، ومن تدبير للمنزل أو تمرس بالفنون ، والقضايا الاجتماعية والانسانية .

هذا ما ادعو اليه سيداتنا وفتياتنا في نهضتهن الحاضرة ، حتى اذا عرفن معنى هذه النهضة ، وقدرن التبعات والتكاليف من اجلها ، لم

يسئن اليها بالرياء والتخاذل ، ولم يمسنها بالاستهتار والغرور ،
لأنها من اقدس الواجبات النسوية ، فهي هيكل خالد لكرامتنا
العقلية وعالمنا الروحي ، بل هي حلقة غير مفقودة ، تتصل بمجد
المرأة الغابر الذي لا يحدنا الزهو بكبريائه اذا لم نعتصم بمجمل الله
ونبرهن بخصالنا وافعالنا ، على اننا أهل لذلك الميراث النسوي الخالد
فلنعش إذن في هذا الطرف من عالمنا الانساني الواسع ،
متبججات لامتبججات ، ومخلصات لامنعصات ، ولا يتسن لنا ذلك
الا بالعلم الصحيح والخلق الكريم والايمان بالمثل العليا ،
فاذا استطعنا ان نكون جديرات بما نسعى اليه ، أشرق
علينا في هذا الشرق الفواح ، شمس ترف من سماء لبنان ، مناسبة
الشعاع ، على أفواف الارز والضويز ، نقاحة بالأمل والحياة ،
ساطعة كوجه الله .

ثقافتنا الفنية

في سورية اليوم نهضة فنية نسوية بفحواها ومدلولها المصطلح **ليس** عليه ، فأحدث بآثارها ومظاهرها ، لكن الأمل كبير بأن تحظى المرأة السورية الحديثة بهذه النهضة المرجوة التي طلعت بواكبرها على ضفاف النيل وفي مشارف لبنان ، ولا بد من يوم قريب تستقر فيه الأوضاع السياسية والاجتماعية فتتكمّل النهضة النسوية الشامية ويكون الفن من قواعدها ومعالمها ، ولئن تناولت الكلام على المرأة العربية عامة والسورية خاصة في ثقافتها الفنية فلا مناص لي من معالجة الموضوع في النواحي التالية :

المرأة السورية في الحياة المسرحية والتمثيلية ، وفي دنيا اللحن والغنون

إذا بدأت القول في هذه الناحية عدت إلى ماضٍ ومكان ليس ببعيد ولا سحيق ، لعمري كان في أعقاب القرن التاسع عشر ، حين قامت دمشق وقعدت ، لحادث جديد في حياتها الاجتماعية شغل العالم وملأ الدنيا حتى بلغ الباب العالي ، وبلاد الشام كان يحكمها في ذلك الزمان آل عثمان ، فثار من أجله السلطان الأحمر الذي كان يشرف من قصره المنيف على البوسفور

فما الذي حدث في دمشق حتى هاجت الفيحاء وماجت ، وانتهى الخبر والأثر الى الآستانة ؟ ذلك ان أبا خليس القباني أقام مسرحاً

في حمام القيشاني ، أو في منزل آخر من منازل دمشق العتيقة ،
وجعل يعرض للناس قصصاً وروايات تمثيلية ، يسميها « القميص »
الكوميدي .

ماذا صنع هذا الرجل حتى عدّ القوم أمره بدعاً وعجباً ؟ إنه
أخرج القتيبة المرد على المسرح بصور نساء ، فصنع لهم الضفائر المجدولة
والثياب المتهدلة التي تخرج زيوها ، وشمّر خدودهم والقي عليهم
صفات الانوثة في الحكاية والتمثيل ، حتى يكاد يحار النظارة فيهم ،
أكلوا ينظرون الى رجال في صور نساء ، يخفون أمامهم مهترات
الخصور ، مكحولات العيون ، مزججات الحواجب ؟ ياغيره الله ،
إنه خطب داهم !!

فماذا صنع الشاميون بأبي خليل الذي ابتكر لهم فن التمثيل ،
وما كان جزاؤه عندهم ؟ .

لعل الذكرى تؤلم حين يسطر القلم انهم ائتمروا به وتناولوه
بالغضاظة والتعير ، ظانين انهم اذا اضطهدوه ونقصوه ، فلوا من
فنه وغلبوه على أمره ، وما كان الاضطهاد الا ليزيد أبا خليل مضياً
في الرسالة الفنية التي ألهمه البرناس العربي أن يؤديها الى الجبل ، مها
حاق به الويل والتنكيل ، فهجر الديار السورية ، وإذا هو بعد
حين على ضفاف النيل ، والقاهرة يومذاك ملجأ الاحرار فأخذ
أبو خليل يبدع للمسرح المصري لوناً جديداً ، فيه الجذ والهزل ،
فيه غناء ملحن يسمى عند الفرنجة بالابوت ، فكيف عرف

أبو خليل هذا اللون من الغناء الجديد وهو لم يذهب الى الغرب ليقتبس منه هذا الفن الطريف ؟ تعلمهم حديثه به فقلده وأجاده ، وكان في في غذائه ولحونه ، رقص « السباح » ، فأقبل عليه المصريون مغتبطين ، وحفروه الى الابداع حتى أقام هو والشيخ سلامة حجازي بفرقتيهما الكبيرتين مسرحاً للتمثيل الغربي ، كان في مستهل هذا العصر ، فاتحة لنهضة فنية ، رسخت قواعدها على ضفاف النيل .

من ذلك الحين قضى على المسرح في سورية ، فلما ابتليت هذه البلاد بانتداب الفرنسيين حاول بعض هواة التمثيل أن يعيدوا الحياة للمسرح ، فاضطهدوا وأوذوا ، إذ مثل نفر من الشباب رواية حماسية وطنية ، كان الخطب بعدها فادحاً ، فقتل هذا الفن يوم مولده من جديد ، وبقيت دمشق محرومة التمثيل طوال العهد البائد ، إلا مسرحاً للغناء الشعبي والفكاهة التافهة كان هزلاً مطلقاً على بردي ، بأوي اليه طائفة من الدهماء وأهل القرى كلما انحدروا من الغوطة في أماسي دمشق .

فأين المرأة السورية في نهضة التمثيل ؟ أحسب أن لا أثر لها ولا يد فيها ، ولو لا مشاهد من السينما تأتينا من صوب مصر تلوح فيها المرأة السورية بأدوار طفيفة خفيفة ، لقلت إن الأرض ما تزال قاحلة ماحلة ، وإن فيها لظماً إلى بل المطر ، على حين تجد المصرية واللبنانية بما أتبح لهما من حرية وتمازج وتشجيع قد سبقنا الى المسرح ، وأستطاعتا في ظلاله على تنمية مواهبهما ، وتعديتها بالمرانة والمراس ،

فظهرت من بنات النيل ولبنان ، ممثلات بارعات إذا قعدت بهن
الثقافة التمثيلية عن اللهاق بحسان هوليود ، فان منهن من حظيت
بمكانة مرموقة في الحياة المسرحية

وقد كانت لنهضة الأدب في مصر أثر كبير في الثقافة الفنية
النسوية ، وكم لشوقي من يد على الفن في نظم المسرحيات ، وحين
شهدت فاطمة رشدي ، وأمنية رزق وأماليها قلت لهن ممثلات
موهوبات لا يتعاضطن احتلال المكانة اللاتقة في التمثيل العربي ،
هذا التمثيل الذي أقامت له الحكومة المصرية معهداً عالياً تتعلم فيه
الفتاة إلى جنب الفتيان ، ولا يتاح فيه القبول إلا للهاثرين على
البكالورية والفائزين بالشروط المطلوبة معها ، أما اللبنانية فتتمثلها في
التمثيل السينمائي الآتسة الموهوبة الكسندرا بدران المعروفة بنور
الهدى . وقد استطاعت هذه الفنية الرصينة أن تمضي الى غايتها قدماً
بما أوتيت من سمعة فاضلة ومواهب أصيلة في الغناء والتمثيل .

ولست بسبيل النقد الاجتماعي ، فأعجل انصراف المرأة السورية
عن فن المسرح فان هذا يطرح مطارحه بعد أن يبني الرجال
هيكل هذا الفن ، وأحسب أن العرف المحتوم في التقاليد والعادات
سيحول طويلا دون هذه النهضة المسرحية والتمثيلية ، وللمرأة
السورية اليوم مندوحة عن هذا باستيفاء نصيبها من الثقافة والمعرفة
كذلك ضافت الآفاق على السوريات في الغناء ، فاذا عدنا الى
زمن قريب وجدنا أن بلاد الشام أطلعت موهوبات وملهات في

الغناء والتطريب أودع الله حناجرهن أصوات العنادل ، لكن هذه الأصوات لم تستطع التغريد على سجيتهما وحريتهما ، فانتفضت صواحبها من قيود البيئة وتقاليد البلد ، وفزع بعضهم إلى مصر حيث اتسعت الآفاق والموارد ، وهنالك كانت دور السينما والتمثيل ومسارح الغناء والطرب ، تتلقاهن بحفاوة وتقدير على الرغم من كل تنافس وتحيز

لقد كن بذوراً حلوة خلقها الفن في أرض جدباء ، فلما أتبع لها أن تنقل إلى وادي النيل حيث يطيب الغرس ، أزهرت تلك البذور وأثمرت ، ولكم يشوقنا أن نسجو بالاسماع إلى قرية الشهباء « ليلي » التي أنجبته مدينة سيف الدولة ، وقد ترددت أغاريدها على ضفاف النيل وفي ظلال النخيل وغير « ليلي » مراد ، ماري جبران ، وزكية حمدان ، وسواهن كثيرات ظهرن في مصر مغنيات ، لهن في سوربه أصول وثمرتهن فيها أعراق تحن المسامع إليهن في كل حين ، ولولا أن الاذاعات قربت منهن الأسباب ، ومشاهد السينما اطلعت بعضهن مطالع التقريب لاشتدت لهفة سورية إليهن ، وما يزال صوت الحاكي والمذيع يرجع صوتاً خالداً على الزمان ، تملأه النفوس وتبكي العيون على شعلة عربية سطعت من جبل الصيد المناجيد ، بني معروف ، ثم انطفأت في أرض مصر ، فريح اسهمان ، أي صوت شامي حنون تركت دويه في الوجود ! وكان إلهام الفن تنزل من عليائه على حنجرتها ، وتردد في صداها

لقد ذهبت أسهمان قرباناً لهذا الفن الذي عاشت من أجله، وبقي صوتها يدهد الجوانح الحرى ، ويملأ الأسماع باللهفة والحنين وفي سورية عدد من الشاديات الناشئات والمتمرسات المحترفات لويتاح لهن توجيه في لبوزت الموهوبات لأول الصفوف ، أما في لبنان فمجالهن أقرب وأرحب ، وقد أتيت لبعضهن شهرة بعيدة كسهام رفيقي ذات الطابع الخاص ، ونجاح سلام التي أخذت الفن عن أبيها الموسيقار المجدد محي الدين سلام ، « وصباح » الفغالية ، و « نور الهدى » وكتماهما يفوح شباب لبنان في غنائها وأدائها

هذه إلمامة خاطفة عن طائفة من المغنيات الفنيات، عرفهن القوم وكمن دون الحجاب وفي ظلال البيوت، أصوات مكبوتة لم يقبض لها أن تشقى وأن تملأ الأرواح من تغريدها ، ولقد أستمعت منذ سنين صوت فتاة ما أحسب عرش أم كلثوم يبقى قائماً لو غرست هذه الفتاة بالغناء والتطريب ، غير أنها تزوجت واستسرت في فيود البيئة فكبت الفن في نفسها ، ورب شعور يحتاج فيها ، فنغمهم أغنية حبيسة لعل فيها الغراء والساوى عن أمل ضائع وفن شتيت ، وقد تكون اليوم في بيتها بين الولد والمطبخ ..

وفي الموسيقى لم تعرف السوريات مبدعة او بارعة مارست هذا الفن الجميل او وقفت جهدها عليه ، غير الآنسة ايلين عجمي شقيقة الآنسة ماري عجمي ، وكانت سورية في زمانها البعيد لائحلو من موسيقيات ، صناعات وطنبوريات ، وعوادات وربايات ، لكن

هذا الفن انحط على تراخي الأيام ، وبقيت السوريات ذوات شغف بالطرب ، ففي بعض مجالس السمر ومواعيد « الاستقبال » نسمع عوادات مجيدات ، ينمنن بالأنامل على الأوتار ، غير أنهم منكتمات يؤثرن التطريب والعزف على بعض الآلات في خلواتهن ، أو في مجالس صواحبهن .

ان التعليم النسائي في سورية لايعني بالموسيقى والتلحين ، عناية المصريين بهذا الفن الأصيل ، وان لها في بلاد النيل ندوات ومعاهد ، أجزلت لها التشجيع واختصتها بالعناية ، وأدخلت الحكومة تدريس الأنشيد وآلات الإيقاع في مدارس البنات ، وأنشأت لها معهداً ثانوياً وعالياً لمعلمات الموسيقى والاختصاص بما تنبغ فيه الفتاة ، وتتعهد الفن في هذا المعهد عميدته الفضلى إحسان كيلافي وفريق من الموسيقيات المثقفات منهن بثينة فريد وعائشة صبري ولىلى فرح ، وغيرهن كثيرات يتفوقن بالمسابقات العامة

وقد كان لهذا النوع من الثقافة الفنية أثر محمود في توجيه الفتاة المصرية الحديثة ، ولاغرو فان هذه الثقافة من مقومات التعليم النسائي ، ومتممات حاجته المعاصرة ، ومن العجب ان يقتحم التطور أكثر نواحي الحياة في سورية دون هذا التعليم الذي بقي معظمه صورة عن تعليم البنين ، فأين الرياضة الحديثة للبنات على أنغام الموسيقى وهدهدة الإيقاع ، وأين الأنشيد المدرسية للفتيات التي تحي فيهن الأمل من أجل حياة أبقي وأنقى ، وأين دروس الموسيقى

التي ضلت فيها الفتاة السورية السبيل ، فلا غناء ولا تمثيل ، ولا أداء ولا إلقاء من أجل الفن ، ففتاتنا تخرج من معهدها مزودة بالاجازة والشهادة للوظيفة أو الظهور احياناً وقد اضاغت كثيرآ من أنوثتها ثم تنسى بعد حين تلك الدروس الحشوية النظرية ، فاذا شبت ودخلت الحياة الاجتماعية والزوجية لم تجد بين يديها إلا القليل

وما تزال الثقافة الفنية في الرسم والتصوير دونما هي عند الرجل ، فالمرأة فيه زاهدة مقيدة ، وعنه منصرقة متلهية ، ولم تعرف عندنا مصورة نابغة لفتت الأنظار الى متحفها وروائع فنها ، وتدرّس الرسم في مدارس النبات يجري تقليدياً راتباً ليس فيه تطور ولا تجديد ، لأن أولي الأمر يحسبون أن الثقافة التصويرية من «الكماليات» للمرأة ، وقد فاتهم أنها والموسيقى ضرورة مقضية ، فها قوام الثقافة الفنية النسائية ، على حين تجد مصر الحديثة معنية كل العناية بتعهد هذه الثقافة في التعليم المعاصر ، وقد شهدت بمصر ، إبان مقامي بها معارض فنية أقامتها مصورات مصريات أوتين مواهب الرسم ، وتلقين الاختصاص بهذا الفن في ديار الغرب ثم عدن الى الوطن ومعهاده مزودات خير زاد من ثقافة الفكر والفن ، فلأن الفراغ في نواح من النهضة النسوية والحياة الاجتماعية ، وإن منهن من باعت صوراً وألواحاً بأعلى ثمن ، وهذه الصور والألواح التي أجادها فن المصريات تزين اليوم قصور الكبراء والأمراء ودور المفكرين والمثقفين ، بمن يقدرّون الفنون الجميلة ، وهنا أذكر بأن في وادي النيل من بساته

الفنّيات مصورات موهوبات ، هن الحبيج البالغة التي تنقض رأي المناوئين للمرأة ، الذين يزعمون بأن المرأة لاتبدع في الفن ولم تؤت مواهبه ومزاياه ، فمن هؤلاء العبقريات زينب عبده وإنعام سعيد وعزيرة يوسف وعدالت كمال وأليس تادرس وكوكب يوسف فقد جعلن بين الفن الأصل والفكر المتحرر والمثالية الروحية والوطنية أما في لبنان فعلى الرغم من قلة المعاهد المختصة بهذه الثقافة فقد أبت المواهب إلا أن تظهر في نفر من النساء كن موسيقيات ملهات ، ومصورات فنّيات ، منهن الأدبية السيدة سلوى محصاني مومنة التي جمعت بين الأدب والفن .

على أننا لو تأملنا عناية السوريات بهذه التحاسين والتزاويق التي ينثونها في بيوتهن زينة وفرشاً ، ويصنعنها بأيديهن كساء ولبوساً ، لادر كنا فيهن وعياً لكل فن وثقافة ، ولكن يعوزهن التوجيه والتشجيع ، فالمواهب إذن دفينة مستكنة ، تحتاج الى بعثها ورعايتها ، وأذكر أنني شهدت في دمشق بيتاً أشبه بمعرض فني متنوع ملأته سيدته الحليبة أثاثاً وزخرفاً ، مصنوعاً من الخشب والنحاس ، وبعضه من الزجاج والورق ، فيه الخزائن والمناضد ، وفيه الثريات والمشاجب ، وكثير من الصور الملونة التي كانت من صنع السيدة ، فليت فتياتنا السوريات يقبلن على هاته الصناعات الفنية التي تقفح لهن آفاقاً جديدة ، وتكون لبعضهن حرفة يتكسبن بها او الهية

شريعة تصرفهن عن كل هو فاسد ، وفراغ مملول ، فيملأن البيوت
والمعارض بما صنعت أيديهن وأبدعت مواهبهن

وإذا كانت هذه الفنون وأكثرها ملتصق بطبيعة المرأة ، مما
يثقف الفكر ويصقل الذوق ويهون الخطوب ، فما أحرانا بأن نسعى
إلى توجيهها وجهة صحيحة صريحة ، ولن نتحقق ثقافتنا الفنية كما
تحققت عند غيرنا ممن سبقنا إليها ، إلا إذا تعهدتها الحكومة ، فرعت
معارضها وجددت معاملها ، فحبيتها إلى فتيات اليوم وقربتها منهن ،
ففي أجدر ما ينبغي أن يعنى به في التعليم النسائي ، ولعل المرأة
السورية الحديثة كلما أحاطت بألوان الثقافة ارتقت في آفاقها هذه
الفنون ، فتكون من دعائم نهضتها التي يعوزها التطور والتجدد ،
وإن شيوع المعرفة بين النساء وتبدل الآفاق وتمازج الثقافات
كفيل بيميلاد عهد جديد للمرأة السورية تبرز فيه موقرة الفن
والطموح ، مستتمة لوعيتها ورقبها ، فتكون لها نهضة فنية مرموقة .

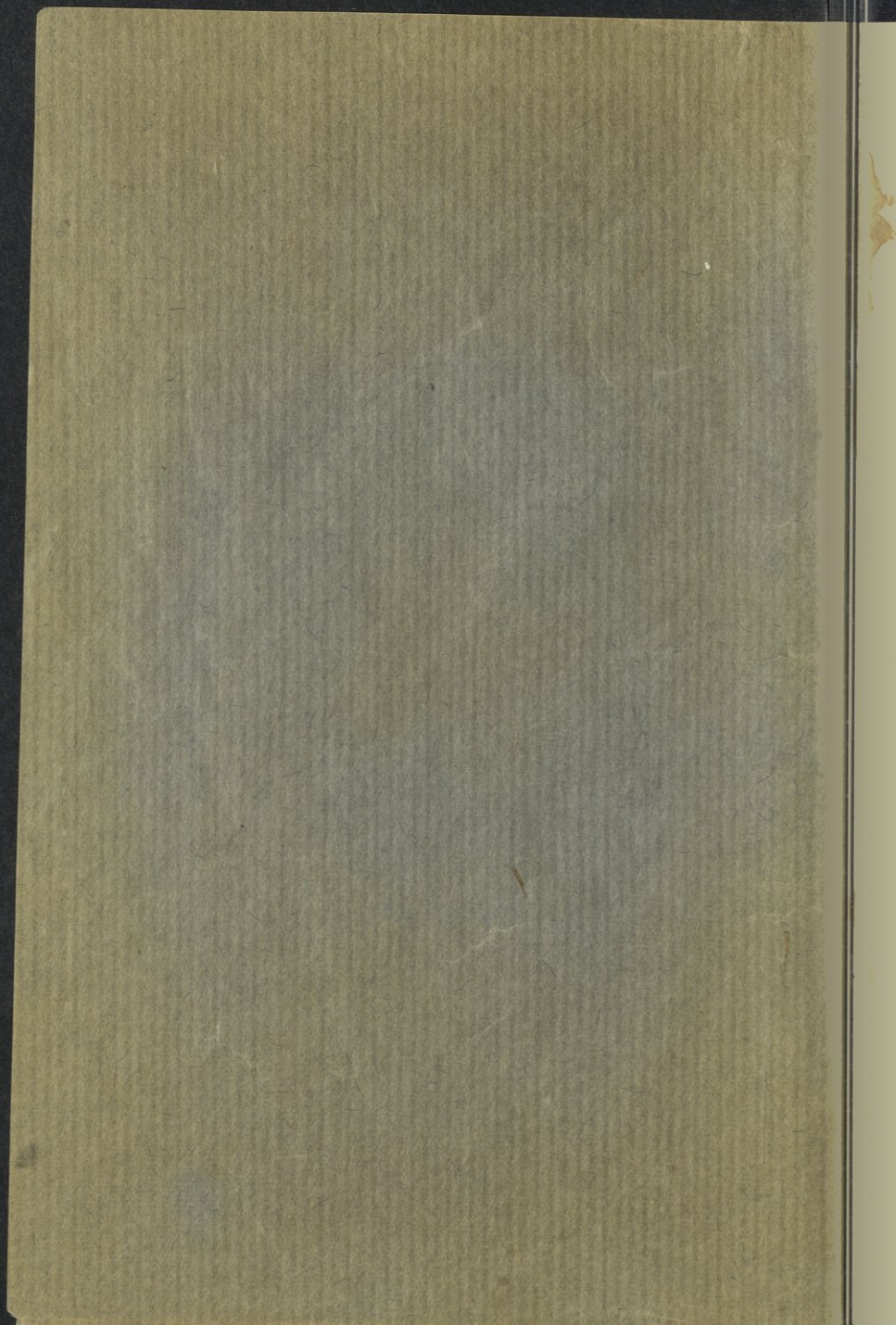
ص	ص	الصواب	الخطأ
٤	٢٥	لهن	لهم
١٢	٢٣	يروي	يرى
١	٣١	ذكرها	ذكر
٦	٣٧	فأحدهما	فأحدهما
٥	٤٠	ومضى	ومضت
٦	٤١	فهي	فهن
٩	٤٣	أيامى	أيامي
٣	٤٤	الحجاز	الحجام
١٠	٤٨	جذيمة	حذيمة
٤	٥٨	التصدي	التعدي
١٠	٦٢	بهوها	بهواها
٣	٨٠	ويذود	ويزود

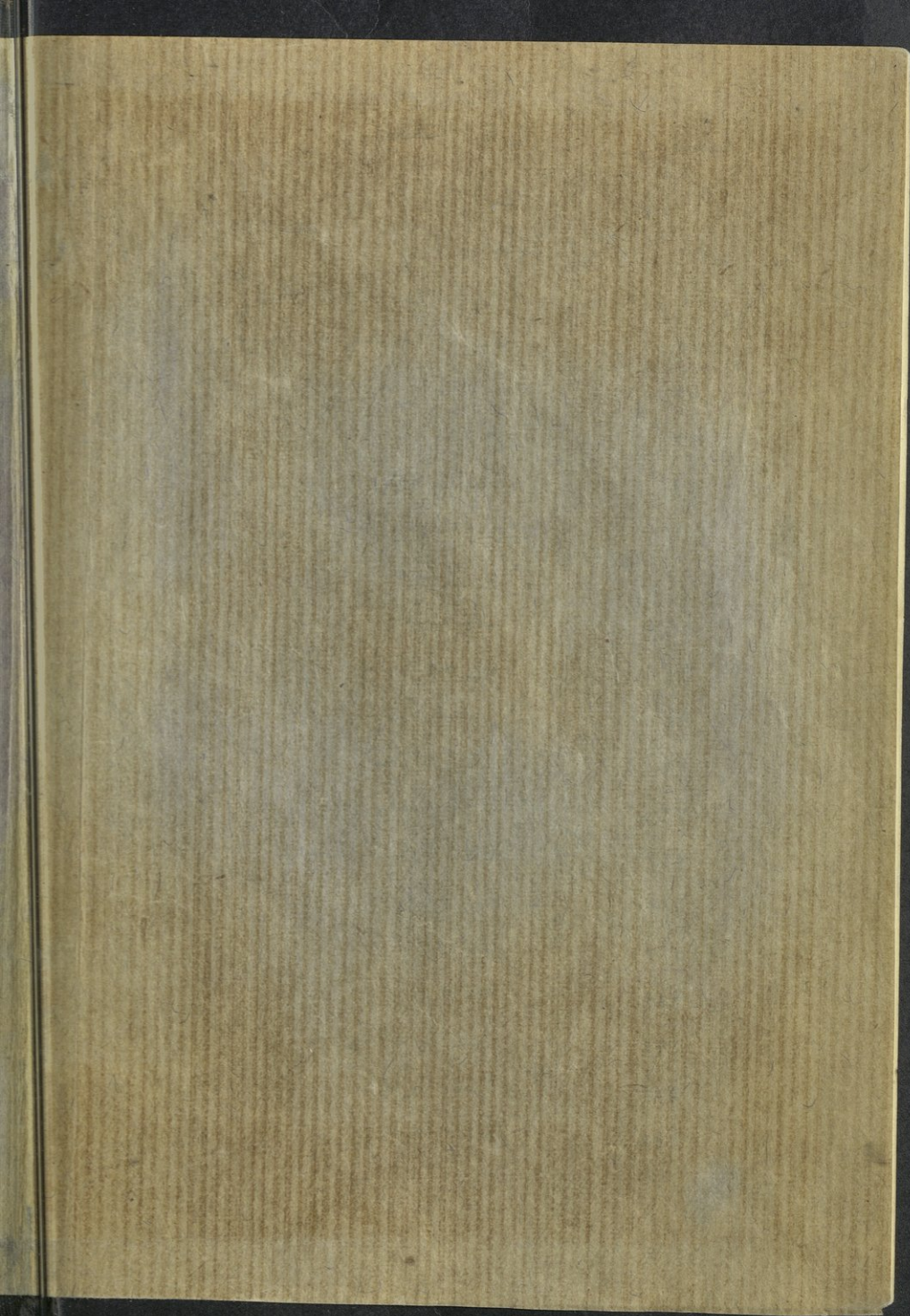
طبع هذا الكتاب بعتاية الاستاذ عبد العزيز الموصلي
صاحب مطبعة « الثبات » الذي يرعى آثار المؤلفين
والمتقنين باخلاص واهتمام

في هذا الكتاب :

الصفحة

المدخل	١
إنصاف المرأة	١
السوريات في النضال الوطني	١٠
مجالس الأدب عند نساء العرب	١٧
بطولة المرأة العربية	٣٠ مطر
هل المرأة وفية ؟	٣٧
كيف نتحدث	٤٥
حاجات ملبيات	٥٤
أدب النسوة	٦١
سحر المرأة	٦٨
قفل بغير مفتاح	٧٣
إحياء البنات	٧٩
الآلآء الالهية	٨٦
المرأة والتعليم العالي	٩٢
الثقافة النسوية المنشودة	١٠٢
فتش عن الرجل	١١٠
أعداء المرأة	١١٥
محمد محرر النساء	١٢٣ مطر
نهضة المرأة السورية	١٣٢
التقدم المرموق	١٣٣
ثقافتنا الفنية	١٤٩





396:Sa15iA:v.1:c.1

سكايني، وداد

انصاف المرأة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01023774

American University of Beirut



396

Sa15iA

v.1

General Library

